الإيداع القانوني: 555 - 2014
ردمك : 978 - 9931 - 384 - 41 - 0

الشيخ محمد العربي التبّاني

«المدرس بمدرسة الفلاح والحرم المكي»

حياته وآثاره

سطيف 2013

منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقـاف – الجزائر

كلمة معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف [1]

د. بو عبد الله غلام الله

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

- حضرة الفاضل السيد والي ولاية سطيف.
- حضرة الفاضل السيد رئيس المجلس الشعبي الولائي.

السادة الأفاضل العلماء والأساتذة الذين تجشموا صعوبة ومشقة السفر.

- السادة الأفاضل الأئمة الحاضرون.
- الأفاضل أعضاء الهئية الادارية في هذه الولاية من إداريين ورجال أمن.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

نرحب بكم جميعا في هذا اللقاء العلمي الذي نتناول فيه شخصية علمية كاد أن يأتي عليها النسيان بسبب الهجرة، -هجرته إلى البقاع المقدسة- هذه الشخصية هي الشيخ محمد العربي التباني، وهو مثله مثل العديد من الجزائريين الذين هاجروا من بلادهم طلبا للعلم وفرارا من الضغط ومن التجهيل الذي كانت تفرضه فرنسا الاستعمارية على شعبنا.

فمن العلماء الجزائريين من أضاف إلى التراث شيئا جديدا، ومنهم المحتفى به اليوم، ترى فما هو هذا الشيء الجديد الذي أضافه؟ وهذا القصد

عندما طالبنا بالتجديد لدى العلماء الجزائريين، فكان هذا اللقاء حول التجديد عند التباني، وقد ورد الحديث:

«سيبعث الله على رأس كل مائة سنة -أو مائة عام- على هذه الأمة من يجدد لها دينها» وهو البحث عن الجوهر، وأن لا نُنكر التجديد، بل العكس، يجب أن نعمل على اختراع الحلول للمشاكل المعاصرة، لأن كل جيل سيتعرض للمشاكل، والحلول القديمة لا تساعد على حل المشاكل الحديثة، فنحن اليوم أمام هذه المشاكل، مشكل اهتزاز الوعي القومي والوعي الوطني والوعي الديني، فيكف نعيد تثبيت هذا الوعي عن طريق الاجتهاد ونلتمس الصواب.

سنحيي التراث لعدد من العلماء الجزائريين وأولهم الشيخ محمد العربي التباني، الذي نجتمع اليوم لنستمع إلى الباحثين في بعض مواطن التجديد بالنسبة إليه، وما هي المواقف الأصلية التي عبر عنها، حتي ولو كان خارج الجزائر، لأنه كان كما لو كانت الجزئر هي التي تتحدث، وإن كان الحديث خارج البيئة الجزائرية، وقد نتناول في الأيام القادمة -إن شاء الله- أشياء مغمورة لا يكاد أحد أن يسمع بها، كآراء الشيخ الرماصي -الفقيه المتميز- كما يمكن أن نعود إلى الشيخ بوراس المعسكري، ونعود كذلك إلى علماء الصحراء الذين نشروا الإسلام في إفريقيا سواء في الساحل الإفريقي أو في نيجيريا، أو غيرهم من البلدان.

إذا فلا بد أن نعود إلى هؤلاء العلماء، وأن ننظر كيف تصرفوا؟ وما هي عناصر النجاح في أعمالهم؟ حتى يستطيع أن يأخذ بها الشباب العامل أو الشباب المتطلّع إلى أن ينهض بالتجديد في المجتمع الحديث.

أشكر الجميع مرة أخرى وأتمني لكم التوفيق في ملتقاكم هذا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

التّأليف والكتابة عند العلاّمة محمد العربي بن التبّاني
-المنهج والمقومات-

د. محفوظ بن صغير
جامعة المسيلة

تمهيد:

إنّ أهمّ ما يميز فن التّأليف والكتابة عند العلاّمة محمد العربي بن التبّاني هي ميزة التجديد في المنهج والجدّية في الطرح تحليلا وتعقيبا ومناقشة، بغية إضافة الجديد، انطلاقا من وجود مشكلة تستدعي الحلّ، مع بيان دواعي التأليف، وهذا الذي صرح به عند ما قال: «لا أميل إلى التّأليف عملا بنظرية القائل ما ترك الأول للآخر شيئا»، ثمّ قال: أستغفر الله من أن أقول هذا هضماً لحقوق العلماء الشارحين فإنهم عندي بالمكان الأعلى من التوقير والاحترام وما من شرح وحاشية إلا وفيه فوائد، ولكن أقول هذه الكثرة لم تنتج شيئاً يقارب علم الأقدمين فضلاً عن مساواته.

وقال أيضا: لقد سمعت من شيخي الشّيخ حمدان الونيسي رحمه الله تعالى يقول: (التّأليف في هذا الزّمان ليس بمفخرة).

فالشيخ صاحب رأي قويّ مع الأدب الجمّ الكبير للعلماء الأجلاء فهو لا يغلق الباب ولكنه ينزل أعمالا لمتأخّرين منزلتها مقارنة بأعمال المتقدمين[1].

(1) محمد العربي التبّاني: محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب، مطبعة حجازي،القاهرة، 1951،ص 140 – 141.

والمتمعن في هذا الرأي يجد أن الشّيخ ينطلق من منطلقين أساسيين في التّأليف والكتابة وهما الجدة والجدية شكلا وموضوعا. وهو ما يصطلح عليه بالإبداع والخلق والتجديد العلمي، فالمطلوب دائما في الكتابات العلميّة إنتاج وتقديم الجديد المبني على أسس علميّة حقيقية والذي يتحقق عن طريق:

– اكتشاف معلومات جديدة متعلقة بموضوع البحث وتحليلها وتركيبها وتفسيرها.

– اكتشاف معلومات جديدة إضافية عن الموضوع تضاف إلى تلك المتعلّقة بالموضوع.

– إعادة ترتيب وتنظيمه وصياغته الموضوع صياغة جديدة بصورة تعطي للموضوع قوة وتوضيحا أكثر مما كان عليه من قبل.

– تركيب موضوع جديد من مجموع معلومات وحقائق علميّة مكتشفة ومعلومة ولكنها مشتّتة ومتناثرة هنا وهناك.

وهذا هو المقصود بالتجديد عند التبّاني من خلال مؤلّفاته وكتاباته.

وعلى هذا فإنّ هذه المداخلة تقتصر على ا لمباحث الآتية:

المبحث الأول: منهجه في التّأليف والكتابة

أبان العلاّمة التبّاني في رسائله اعتماده المنهجية العلميّة الأكاديمية المتّبعة اليوم في الأبحاث الجامعية المعتمدة، فهو كثيرا ما يذكر دوافعه من كتابة رسائله وكذا أهدافه، مع الإشارة إلى الدراسات السّابقة حول الموضوع ،كما أنّه لا يُغفل ذكر المصادر الأصلية إذا أراد أن

يستقي الآراء من مظانها وغيرها من مظاهر المنهجية المعروفة في كتابة الرسائل الأكاديمية .

المطلب الأول: مقاصده في التأليف

أولا: التجديد

وهو مظهر جلي في كتابات العلاّمة التبّاني، ومقصده الأول في التأليف، إذ لا يكتب إلا إذا وجدت مشكلة تستدعي الحل.

ولذلك اتسمت كتاباته بالإبداع المعبر عنه في منهجية البحث العلمي بالإشكالية التي لا تخرج عن الإتيان بجديد لم يسبق إليه فيخترعه، أو ناقص يجب تكميله، أو غامض يجب شرحه، أو مطول يجب تهذيبه، دون الإخلال بشيء من معانيه، أو متفرق يجب جمعه، أو مختلط يجب ترتيبه، أو خطأ يجب تصحيحه. وأحيانا يصرح بأسباب اختيار الموضوع، كما بيّن ذلك في كتابه «إتحاف ذوي النجابة». كما يجعل للإشكالية المطروحة حدودا زمنية أو مكانية أو شخصيّة أو موضوعاتية، كما قال في تعليقه على رسائل الكوثري: «لم أكتب إلا على أهمّ المباحث في الرسائل الأربع وعلى بعض تعاليقه، وقد سُقت من كلامه برمته في كل بحث تعقّبته فيه ليظهر للقارئ جليةُ أمره فيعذرني.

وعلى هذا سار التبّاني في تآليفه المتنوعة، فكانت إما ردوداً يقصد منها تصحيح الخطأ، أو تعليقات وتنبيهات بغرض الإضافة. حيث يقول في ذلك: «لا رغبة لي في التّأليف ما لم يكن لإلحاق حقّ وإبطال باطل، أو دفاع عن الإسلام ورجاله العدول عملا بقول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئا، وهذا الكلام صحيح منطبق على العلوم

العربيـة والشرعيـة بجميـع فنونهـا، فمنـذ قـرون انقطع المسـتنبطون والمسـتخرجون للنّكت البديعة من هذه الفنون، وصار المؤلّف الحاذق مـن يسـتطيع أن يلخـص كلام السّـابقين ويخرجه للناس في أسـلوب موجـز، قالـوا: وربما ألّـف في فن من الفنـون من لا يحسـنه، فما أصح علم من تقـدم، هذا مع كون المتأخّرين وصلت إليهم ثروة عظيمة من تصانيف المتقدمين، وكفتهم المطابع في هذا القرن عناء الرحلة والنسخ والمقابلة والأثمان الباهظة، ومع هذا كلّه قل العلم وازدادت الدعاوي فيـه فرحم الله العلاّمة الناظم الناثـر أبا الحجاج البلوي الأندلسي أحد أعيان المائة السادسة، ومؤلف كتاب «ألف باء» النفيس إذ قال:

خـذ مـن هاهنـا وضعهـا هنا وَقُـــفْ مؤلفه أنـــا ههنا

ثـم يقـول: وإني مـع قلّـة بضاعتي في هـذه العلوم التـي قلت بحثا وتحقيقا ولم يبق فيها مقال لقائل أقحمت نفسي في كتائب المؤلّفين قبلي.

ويلحظ القارئ لتراثه ذلك جليا على سبيل المثال في:

-كتاب «إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن الكريم والسّنة النّبوية من فضائل الصحابة». الذي قال عنه السّـيد إسحاق عزوز: «وهو ردّ على الطاعنـين في الصحابة، وخاصـة الرافضة، الذيـن يتنقّصُون الصّحابة الكرام، وقد مهَّد في هذا الكتاب القواعد العامّة في فضلهم، كما أردفَ ذلك بخاتمة في فضائلهم عموماً، وخصوصاً الخلفاء الأربعة»[1].

قال في مقدمته: «.. فقد عنّ لي منذ سنين خلَتْ لـمَّـا كتبت نبذةً يسيرة على محاضـرات الخضري في نقـد الصّحابة وبعض الخلفاء الراشـدين

(1) محمـد العـربي التبّـاني: تحذيـر العبقري مـن محاضرات الخـضري، منشـورات وزارة الشؤون الدينية، 2011، ص 28.

رضي الله عنهم خطلاً، أن أكتب رسالة تتضمن فضائل الصّحابة في القرآن والسنة»[1].

- ومؤلفه الشّهير «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»، أو «إفادة الأخيار ببراءة الأبرار»، وهم الصّحابة الكرام رضي الله عنهم.

ألّفه في تفنيد ما شحنت به كتب الشّيخ الخضري، التي كانت تدرّس في معظم المدارس الدينية في العالم الإسلامي. وأشهرها: كتابه «محاضراتٌ في تاريخ الأمم الإسلامية»،وكتاب «نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين»، و«إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء»، وهي على جزالة تأليفها، ومتانة عباراتها، وقع مؤلّفها في عدد من الأخطاء المنهجية في التأليف، أبانت عن تبنّيه منهجاً عصرياً غزَا العالم الإسلامي منذُ ذلك الحين، تمثّل في أفكار شاذّة وآراء غريبة، دخلت على المنهج الأزهري على يد محمد عبده المصري، ابن الغَرابيلي (ت 1322 هـ)، الذي قدم من فرَنسا حاملاً في جعبته أفكاراً سُمِّيت إصلاحيةً، بعضُها جيدٌ ساهم في النهوض بمستوى التعليم والرقيّ بالمدارس الإسلاميّة، ولكنها تنطوي على سموم ناقعة، تتمثّل في ردّ النصوص القطعية من الكتاب والسنة، وفتح الباب لإعمال الأفكار فيها والتقاط الشاذ من أقوال المتقدمين، والبعد كل البعد عن منهج الراسخين في العلم، المتثبتين في فهم النصوص على وجهها، كما سارت عليه جماهير الأمة.

فانبرى فضيلة الشّيخ العربي، حاملاً قلمه، محرراً مباحث أوراقه وصحائفه، في الردّ على تلك الهفوات العظيمة، والزلات الجسيمة التي

(1) محمد العربي التبّاني: إتحاف ذوي النجابة.

امتـلأت بها صفحات كتاب الخـضَري، وأنتجت قريحته وقوة حافظته ومعرفته لمظان النصوص والمسائل، هذا الكتابَ الجليل القدر.

قال عنه السّيد إسحاق عزوز:

«مهد المصنف لكتابه هذا بمقدمة ذكر فيها القواعد الصّحيحة التي بمقتضاها توثق الأخبار أو تجرح، وقد اقتصر في نقده «للمحاضرات» عـلى الجزء الخاص بالصحابة، كما تعرّض لبعض الموضوعات الدينية، كقصة الفيل، وبناء البيت وحجّه، والخلافة الإسلاميّة، وقصّة الإسراء والمعـراج. ويعتبر هذا الكتـاب صنوا لكتاب «إتحـاف ذوي النجابة»، فكلاهما يتمم الآخر، ففي «الإتحاف» تعرّض للقواعد العامة، وفي هذا الكتاب تتبع الأخبارَ على ضوء قواعد المحدثين»[1].

-ومنها: رسالة بعنوان «إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات». وعنوانها يدل على مضمونها.

-ومنها: رسـالة بعنوان «اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن بنزول المسـيح ابن مريم عليه وعلى نبينا السلام آخر الزمان»، قال عنه السّيد إسحاق عزوز: «تعرض فيه للرَّد على من أنكَر نزولَ المسيحِ بأحسَن ردٍّ»[2].

6- ومنهـا: رسـالة بعنوان «خلاصة الكلام فيما هو المراد بالمسـجد الحـرام»، قـال عنه السّـيد إسـحاق عـزوز: «حقـق فيها الغـرَض من المسْـجد الحرام: هل هو المسـجدُ؟ أم الحرمُ كلُّه؟»[3]. قوى فيها القول

(1) محمد العربي التبّاني: تحذير العبقري، ص 82.

(2) محمد العربي التبّاني: نفسه، ص 72.

(3) محمد العربي التبّاني: نفسه، ص 72.

بأنه يشمل الحرم كله، على ما روي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وعن حجّة أهل الكوفة في عصر التابعي عامر بن شراحيل الشعبي.

ومنه يمكن القول بأن كتابات التبّاني تتّسم بالمنهجية العلميّة التي تنطلق من إشكالية الموضوع وحدوده الزمانية والمكانية والشخصية.

ثانيا: تحديد العنوان

العنوان هو مطلع البحث، وهو أوّل ما يصافح نظر القارئ، فينبغي أن يكون جديداً مبتكراً، لائقاً بالموضوع، مطابقاً للأفكار بعده؛ فهو الذي يعطي الانطباع الأول في عبارة موجزة، تدل بمضمونها على الدّراسة المقصودة، وهذا ما عناه التبّاني في تحديده لعناوين مؤلّفاته التي راعى فيها الأمور التالية:

أولا: أن يكون العنوان مفصحاً عن موضوعه، مثل كتابه تحذير العبقري من محاضرات الخضري.

ثانيا : أن تتبين منه حدود الموضوع، وأبعاده.ككتاب براءة الأشعريين من عقائد المخالفين.

ثالثا: أن لا يتضمن ما ليس داخلاً في موضوعه.كرسالته خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام.

رابعا: إيحاؤه بالأفكار الرئيسة بصورة ذكية، مثل دلالة رسالة إسعاف المسلمين والمسلمات على قوله بجواز قراءة القرآن ووصول الثواب إلى الأموات.

والملاحظ على عناوين مؤلّفاته أنّها تتسم بالدقة وتتطابق مع الإشكالية والمضامين.

ثالثا-تحديد المنهج العلمي:

من المقومات الجوهرية والأساسية للكتابة عند التبّاني، تلك الصياغة العلميّة الجيدة التي التزم فيها تطبيق منهج أو أكثر بدقة وصلابة بغية الوصول إلى تحقيق النتائج العلميّة البحتة، كاستخدامه المنهج التحليلي المقارن في رسائله الفقهية الثلاث، والمنهج التّاريخي في كتابيه «تحذير العبقري، وإتحاف ذوي النجابة».

رابعا-الأسلوب في كتابة البحث العلمي:

إن المتأمل في أسلوب الكتابة عند التبّاني يجدها تتسم بالعلمية والموضوعية والمنطق، لكونها تشتمل على استخدام المصطلحات العلميّة الدقيقة، مع سلامة اللّغة ودقتها ووضوحها، وعدم التكرار، وتنظيم المعلومات والأفكار والحقائق العلمية، والتماسك والتسلسل والتناسق بيّن العناصر حسب تقسيمها وتبويبها.

المطلب الثاني: تعامله مع المصادر

أولا: الدراسات السّابقة

إن مما يؤكد منهج التبّاني الدقيق المطلع، معرفته بالمؤلفات السّابقة، في الموضوع الذي طرحه وعن وصول ثواب قراءة القرآن للأموات، أدرج في آخر رسالته ما صنفه العلماء في ذات الموضوع، وقد ذكر التبّاني المؤلّفات الآتية: «الكواكب النيرّات في وصول ثواب الطّاعات» للعلامة سعد الدين الديري ويقول التبّاني أنّه اقتفى فيه أثّر السروجي مع زيادات علميّة كثيرة، وكذلك رسالة «رفع الغشاوة عن جواز أخذ الأجرة على التلاوة» لمحمود أفندي الحمزاوي مفتي دمشق ومدير معارفها تعقب فيها ابن عابدين في حاشيته.

ثانيا: الأمانة العلميّة في النقل والدقة في الفهم

وأساسها أن لا ينسب الباحث لنفسه ما ليس له، وهناك عدّة عوامل ووسائل تساعد الباحث العلمي على احترام أخلاقيات وقواعد الأمانة العلميّة واكتساب مزايا النّزاهة والموضوعية منها ما يلي:

-الدقة في فهم آراء وأفكارهم الآخرين.

-الدقة أثناء القيام بالاقتباس.

-الاعتماد بالدرجة الأولى على الوثائق الأصلية في الاقتباس.

-الاحترام التام لقواعد الاقتباس والإسناد وتوثيق الهوامش.

-التدقيق والحرص على التفريق بيّن مصادر وآراء الباحث وأفكاره وآراء الآخرين حول الموضوع.

وعلى هذا فالأمانة العلميّة تقتضي الدقة في النقل عن الآخرين، وعزو الأقوال لأصحابها، وكذا الدقة في فهم آرائه الآخرين حتى لا تُؤوّل على غير مراد أصحابها.

ولذلك نجد الشّيخ التبّاني حريصا كل الحرص على نسبة الأقوال لأصحابها لفظا ومعنى، عند تحريره للمسائل الفقهية، كما أنّه من باب الأمانة العلميّة لا يعتمد رأي مذهب معين بتغليبه على مذهب آخر، بل نجده متفتحا على كل مذاهب أهل السنة عارفا بآرائهم معتمدا على أصولهم ويبدو هذا جليا في رسالتيه : «إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابه إلى الأموات»، «وكذلك خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام».

ففي رسالة إسعاف المسلمين والمسلمات رأى التبّاني أن القراءة على الأموات جائزة ويصل ثوابها إليهم عند جمهور فقهاء أهل السنة[1] وإنّ كانت بأجرة على التحقيق، وراح يسوق آراء المذاهب الفقهية، فساق رأي الشّافعي من «شرح الروض»، وكذا الرملي على المنهاج، في «باب الوصايا»، وكذا السيوطي في كتابه «شرح الصدور»، وكذا فتاوى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في «باب الإجارة» ما يدل على جوازها .

أما مذهب الحنابلة فقد ساق آراءهم من مصادرها مثبتا صحة وصول ثواب قراءة القرآن على الأموات، فساق قول الإمام أحمد من كتاب المغني لابن قدامة المقدسي من كتاب الجنائز، وساق فعل الإمام أحمد من كتاب الجامع للخلال بأنه كان يصلي خلف ضرير يقرأ على القبور[2]، وكذلك ما أورده ابن القيّم في كتاب الروح ما نصه: «وقد ذكر جماعة من السّلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن»[3].

أمّا رأي الحنفيّة فابتدأه من كتاب «الهداية» للعلاّمة المرغيناني في باب الحجّ ما نصه: «الأصل في هذا الباب أن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاة أو صوما أو صدقة أو غيرها عند أهل السنة والجماعة لما روى عن النّبي أنّه ضحى بكبشين أملحين أحدهما عن نفسه والآخر عن أمته»، كما ذكر رأي ابن الهمام في «فتح القدير» ما ملخّصه أن المعتزلة هم الذين خالفوا كل العبادات ومنعوا وصول ثوابها للغير

(1) محمد العربي التبّاني، إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات، مطبعة بابا الحلبي، 1950م، ط1، ص 2.

(2) المصدر السابق، ص 20.

(3) ذكر التبّاني طبعة المصدر وصفحته.

وأيضا ساق كلام البدر العيني في كتابه «شرح الكنز» بأن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره من صلاة أو صوم أو حجّ أو صدقة أوقراءة قرآن أو ذكر إلى غير ذلك من جميع أنواع البِرّ وكلّ ذلك يصل إلى الميت عند أهل السنّة والجماعة[1].

أما مذهب المالكية فقد ساق أقوالهم من مدخل ابن الحاج ومن الحطاب والخرشي والقاضي عياض وكذلك نصوص من كتاب «العاقبة» للعلامة عبد الحق الأشبيلي.

والمنهج الذي سار عليه في رسالته المذكورة هو المنهج نفسه الذي سار عليه في رسالته «خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام» حيث نجده كثيرا ما يذكر المصادر مذيلا إياها بالجزء والصفحة.

المبحث الثاني: مقوماته في التّأليف والكتابة

المطلب الأول: التعليل الفقهي والأصولي عند التبّاني

أبدى التبّاني نزعة تعليليّة للأحكام الفقهية والأصولية للتّقليص من دائرة الخلاف ونلمس هذا في كتابه: «التّعقيب المفيد من هدي الزرعي الشديد»، وقد تعقب في رسالته هذه الإمام ابن القيّم في كتابه «زاد المعاد» في مسألة هدم القباب التي على القبور. لأنها أسست على معصية الرسول، قال ابن القيّم –رحمه الله– في الهدي: «لا يحل إبقاؤها في الإسلام ويجب هدمها»[2] ونقلها عنه صاحب كشاف القناع.

---

(1) محمد العربي التبّاني، إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات، مصدر سابق، ص 2.

(2) ابن القيّم، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت الرسالة، مكتبة المنار الإسلاميّة، 1415هـ، 1994م، ط27، ج3، ص 601.

وقد أبدى التبّاني في رده على ابن القيّم قدرة تعليلية فهو يميّز بيّن الأراضي الوقفية والأراضي المملوكة[1]، ويميز بينّ ما هو محمول على كراهة التنزيه والمحرّم فيقول: صحيح إن أراد به المشاهد المبنية في الأرض المملوكة فهو باطل قطعا، لأنّ النّهي عن البناء على القبور في الحديث محمول على كراهة التنزيه في غير الموقوفة عند العلماء وحرمة البناء في هذه معلّل بالتضييق على المسلمين، ولا تضييق في المملوكة ولا معصية في البناء فيها ولا يجوز هدمه عند العلماء، وإنّ كان خلافا لسنة، وليس بفقيه من أوجب الهدم في المكروه وجعله معصية، والواجب إنّما يقابل الحرام لا المكروه والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إنما روي عنه منع البناء في وقف عام ولم يرو عنه وجوب هدم ما بني فيه.

وكذلك تعليله جواز القراءة على الأموات بقوله في رسالته «إسعاف المسلمين والمسلمات»: «... لو سُلّمَ عدم فعل السّلف لها «أي القراءة على الأموات» لا يلزم منه المنع الخاصُّ المدّعى؛ فعدم فعلهم لها ليس بدليل، وليس كل شيء من مسائل الفروع لم يفعله السّلف يكون محظورا، ومن ادّعى ذلك فعليه الدّليل، ولا سبيل له إليه»[2].

ومنها تعليله لحجيّة الإجماع واستدلاله بقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [**سورة البقرة الآية 143**]...: وفيها دليلٌ على صحّة الإجماع ووجوب الحكم به؛ لأنّهم إذا كانوا عدولا شهدوا على النّاس فكلّ

(1) محمد العربي التبّاني، التعقيب المفيد في هدي الزرعي الشديد، ص 57.

(2) التبّاني: رسالة إسعاف المسلمين والمسلمات، ص 4.

عصر شهيد على من بعده؛ فقول الصّحابة حجّة وشاهد على التّابعين، وقول التّابعين حجّة على من بعدهم، وإذا جعلت الأمّة شهداء فقد وجب قبول قولهم، وقد احتجّ به جمهور أهل السّنة وجمهور المعتزلة على حجّية إجماع الأمّة فقالوا: «أخبر الله تعالى عن عدالة هذه الأمّة وعن خيريّتهم فلو أقدموا على شيء من المحظورات لما اتّصفوا بالخيريّة، وإذا ثبت أنّهم لا يُقدِمُونَ على شيء من المحظورات وجب أن يكون قولهم حجّة، فإنّ قيل: الآية متروكة الظّاهر لأنّ وصف الأمّة بالعدالة يقتضي اتّصاف كل واحد منهم بها، وخلاف ذلك معلوم بالضّرورة، فلا بدّ من حملها على البعض، فنحن نحملها على الأئمّة المعصومين، سلّمنا أنها ليست متروكة الظّاهر لكن لا نسلّم أن الوسط من كل شيء خياره وهو مُعترَضٌ بوجهين:

الأول: إن عدالة الرّجل عبارة عن أداء الواجبات، واجتناب المحرّمات، وهذا من فعل العبد، وقد أخبر الله تعالى أنّه جعلهم أمّة وسطا؛ فاقتضى ذلك أنّ كونهم وسطا من فعل الله تعالى، وذلك يقتضي أن يكون كونهم وسطا غير كونهم عدولا، وإلاّ لزم وقوعُ مقدورٍ واحد بقادرين وهو محال.

الثّاني: أن الوسط اسم لما يكون متوسّطا بيّن شيئين فَجَعْلُهُ حقيقة في العدالة والخيريّة يقتضي الاشتراك وهو خلاف الأصل.

سلّمنا اتّصافهم بالخيرية، ولكن لِمَ لا يكفي في حصول هذا الوصف الاجتناب عن الكبائر فقط؟ وإذا كان كذلك احتمل أنّ الذي أجمعوا عليه وإنّ كان خطأ لكنّه من الصّغائر فلا يقدح ذلك في خيريّتهم، وممّا

يؤكّـد هذا الاحتمال أنّه تعالى حكم بموتهم عدولا ليكونوا شـهداء على النّاس، وفعل الصّغائر لا يمنع الشّهادة عند مفهوم.

سـلّمنا اجتنابهم الصّغائر والكبائر، ولكن الله تعالى بيّن أنّ اتّصافهم بذلك إنّما كان لكونهم شهداء على النّاس[1].

ومن خلال هاته المسائل تظهر دقة التبّاني في ردّ المسائل المختلفة إلى عللهـا والتـي تدور عليها وجـودا وعدما، كما لم يغفل تفصيل المسـألة وذكر حكم كل فصل مراعيا في ذلك مقصد الشريعة من عدم التضييق والحرج وكذلك التيسير في أمور الناس.

المطلب الثاني: الاعتماد على المصادر الأصيلة

تعتـبر كتابـات التبّاني بحوثا علميـة، اعتمد من خلالهـا على أمّهات المصادر في مختلف التخصّصات، مع براعة الاستدلال بأقوال العلماء في المسألة محلّ التحرير، وكذا الإشارة إلى الرأي المخالف ومحاولة تضعيفه.

حيث يقول في كتابه «هادئان أهل الأدب» الأدب بأخبار وأنسـاب جاهليـة العرب «معرّفـا بكتابه، منوّهـا بأهمّ مصـادره المعتمدة ذاكرا لمنهجـه «هـذه اللآلـئ منثـورة متخرّجة مـن كتـب التّاريـخ والأدب المشـهورة، نافعة أبناء المدارس، مذكّرة للحاذق الممارس، حرّرت فيها راجـح الأقـوال والنّقـول معتمدا ما ذكرهـا ابن خلدون مـع زيادات أضفتها إليها من السّهيلي وأيام العرب وغيرها من الفحول»[2].

(1) التبّاني: إتحاف ذوي النجابة ص 31.

(2) محمـد العـربي بـن التبّـاني، محادثـات أهـل الأدب بأخبار وأنسـاب جاهليـة العرب، القاهرة، مطبعة حجازي، 1370 / 1951، ص3

فرسالته كما هو جلّي موجّهة لأبناء المدارس مبرزا فيها الراجح من الأقوال والنّقول معتمدا على ما ذكر من المصادر.

كما أشار التبّاني إلى مصادره التي اعتمدها في كتابه تحذير العبقري بقوله: «واستمدادي في هذا الكتاب من كامل الحافظ لابن الأثير وبداية ابن كثير واستيعاب الحافظ ابن عبد البر وأسد الغابة وطبقات ابن سعد وإصابة الحافظ ابن حجر وفتحه ومن كتب التفسير والحديث»[1].

أمّا في كتابه إتحاف ذوي النجابة فقد ذكر مصادر هذه الرسالة من عدّة كتب، منها الجامع الصّغير للسيوطي،والصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة،وكامل الحافظ بن الأثير، وحلية الحافظ أبي نعيم، والإصابة لابن حجر، وأحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي الأشبيلي. ومن عدّة تفاسير منها: الخازن، والنفسي،والقرطبي، والثعالبي[2].

إنّ الملاحظ على منهج التبّاني في كتابه أنّه يولي المنهجية أهمية باللغة، فقد قدم لرسالته معرفا بها أنها جاءت في ذكر فضائل الصّحابة والتنويه بشمائلهم ومن تنبيه أبناء المسلمين إلى عظمة قدرهم وذكر الباعث على إنجازها والذي يتمثل في وقوفه على مقالة لكاتب إيراني يدعى حيدر علي منشورة في مجلة تسمى نور دانش عدد 26، كتبها بمناسبة ميلاد أمير المؤمنين أبي الحسن علي وما أورده من الغلو والتناقضات والافتراء عليهما

(1) المصدر السابق، ص47.

(2) التبّاني، إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسّنة من فضائل الصحابة، راجعه محمد عبد الله ناصر الموزعي، المكتبة المكية، 2002م.

وكذلك أورد منهجة في ذكر الآيات والأحاديث مذكرا فيما بعد بالمقالة وفندها بالأدلة العقلية والنّقلية ثمّ ختم بأهم المصادر التي اعتمدها.

المبحث الثالث: منهج النّقد العلمي عند ابن التبّاني

المطلب الأول: دقته في التعليق

علّق التبّاني على كتاب «سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول» للقاضي حشلاف قاضي الجلفة المتوفى سنة سبعة وثلاثين تسعمائة وألف بتعليقات دقيقة غاية في التحري والتثبت فهو في هذا الكتاب يبدو محققا عارفا بالأنساب والتّاريخ وأوزان الشعر، ومتوسعا في اللّغة وعلوم الحديث وعارفا بمؤلفات العلماء، ويمكنني أن أشير إلى هذه الدقة في الأمثلة الآتية:

يذكر قاضي الجلفة في ترجمة نشأة النجل الأبرّ مولانا إدريس الحديث الآتي:

فلم تزل منذ بنيت، فاسا علم، وأهلها يَسْمُون على سائر أهل المغرب علما وعملا وفضلا وقد صدق عليهم قوله ﷺ حين عرج به فرأى بقعة بيضاء تتلألأ نورا بالمغرب فقال: (يا حبيبي يا جبريل ما هذه البقعة البيضاء التي تتلألأ نورا فقال جبريل هذه مدينة لأمتك في آخر الزّمان تسمى فاسا ينبع العلم من صدور رجالها كما ينبع الماء من حيطانها) وقد علّق التبّاني بقوله: «هذا الحديث لا أصل له عن رسول الله ﷺ[1].

(1) عبد الله حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول بتعليقات التبّاني، تحقيق محفوظ بوكراع، ص 57.

ويقـول القاضي حشـلاف: وكان انتقل مولانـا إدريس لمدينة فاس وبقي بها إلى عام 312هـ فقبضه الله إليه.

يعلّـق الشّـيخ العربي بـن التبّاني بقولـه : وبقي بها إلى عـام 312هـ فقبضـه الله إليه غلـط فاحش وفكيف يعقل بناء جامـع القرويين بعده في زمـان حفيده يحي بن يحي بن إدريس عام 245هـ ويموت هو بعده في التّاريخ الذي ذكره وهو 312هـ؟ والصواب أن إدريس بن إدريس توفي سنة 213هـ[1].

- ينقل القاضي حشـلاف عن صاحب القرطـاس ما يأتي: «لما ظهر النفس الزكية بمكّة فبويع له بالموسم وتبعه أهل مكة والمدينة».

يعلق محمّد العربي بن التبّاني بقوله: لما ظهر النفس الزكية بمكّة غير صحيح والنفس الزكية إنما ظهر بالمدينة وقتل بها كما تقدّم والذي ظهر بمكّة وقتل بفخ إنما هو ابن عم النفس الزكية وهو الحسـين بن علي بن الحسن المثنى بن الحسن السبط[2].

- ذكـر القاضي حشـلاف نسـب العـالم الجليـل الشريـف الأصيل سـيدي محمد فتح ابن يحي مقري الجنون السـليماني فعلق الشّيخ التبّاني بقولـه مقرئ الجن، والجنون مصدر وهو معنى ولا يصح تعليم المعنى والمؤلّف عبّر عن الجنّ بالجنون على اللّغة العامية عند المغاربة[3].

- في ترجمـة الشّـيخ محمـد بن علي الخطـابي السـنوسي يذكر القاضي حشـلاف أن نجله الآن سـيدي أحمد الشريف ويعلّق التبّاني على كلمة

(1) المصدر السابق، ص 78.

(2) المصدر السابق، ص 182.

(3) عبد الله حشلاف، سلسلة الأصول، ص175.

نجله بقوله: السّـيد أحمد الشريف حفيد السّـيد محمـد بن علي الخطابي ابن ابنه وليس هو نجله والسـيد أحمد الشريف هذا هو الذي حمل راية الجهاد في وجه إيطاليا الاستعمارية[1].

المطلب الثاني: النّقد العلمي عند التبّاني

أولا: نقده لمناهج المؤرخين

اعتبر التبّاني أن التّاريخ ليس نقلا محضا وخبرًا، وأكّد على أنّ الخبر يجب أن يشترط فيه عدالة الرواة وضبطهم، وإعمال الرأي في الحوادث لا يجب أن يطلق على عواهنه بل يجب تناوله بعد استيفاء الحوادث لشروط صحة الأخبـار، كـما أن نقص شرط من الشروط يجعل الـرأي معزولا، ويؤكد التبّـاني من أنّ هذا هو الأسـاس الـذي يجب أن ينتهـج للطعن في رجال الإسلام عموما، وكيف إذا كان الأمر بسادات الأمّة وكبار الصحابة.

وقد نبّه التبّاني إلى مسـألة مهمّة وهي انقطاع الرّواية السليمة للعلم وبقاؤها في بطون أمّهات الكتب، علما أن كتب الأقدمين لم تَسْلَم أيضا مـن الروايات الواهية والباطلة، وأبرز مثال على ذلك كتاب ابن جرير الطبري، ويُرجع التبّاني انتشـار هـذه الرّوايات في كتب الأقدمين وهم عـدول إلى تعويلهـم على أهل زمانهم حيـث كان العلم منتشرا في كثير منهـم، وخصوصـا علم الرّوايـة فهم يميـزون بيّن الـراوي الضّعيف والخريـت وبـين الخـبر الصّحيـح والسّـقيم. عـلى عكـس المؤرخـين المتأخّريـن الذين لا يمتلكون أية أدوات للنّقـد والتمحيص بل حالهم التقليد على من هب ودب.

(1) المصدر السابق، ص154

إنّ المؤرخين الذين يدّعون حريّة المنهج في كتاباتهم عن سادات الأمّة أشدّ خطرا من الخوارج والروافض، لأنّ عقيدة هؤلاء أضحت مكشوفة لجمهور المسلمين السنيين بعكس هؤلاء الذين يتستّرون بستار التّاريخ الحر فهم أخطر على شبان المسلمين لأنّ دعاويهم صادفت قلوبا خالية من تاريخ ومناقبهم الصحابة[1].

ثانيا: نقده لابن خلدون في ردّه أحاديث المهدي

يقول التبّاني: «ويقرب في شدّة القبح في الطعن في الأحاديث الصّحيحة الواردة في نزول عيسى الطعن في الأحاديث الكثيرة الشهيرة الواردة في خروج المهدي آخر الزّمان بأنّها كلّها باطلة[2] أو أنّها خرافة تقليدا لابن خلدون»، ويرى التبّاني أن ابن خلدون لم يكن فقيها في مذهبه فضلا عن كونه محدثا، أو من أعلام الحديث الذين يمتلكون أهليّة النّقد والتّمييز للأحاديث، ولقد شاع في النّاس خواصهم وعوامهم الحكم على المبرز في فن معين بأنه عالم في كل الفنون فا بن خلدون حكم على كلّ الأحاديث الواردة في المهدي بأنّها من خرافات الرافضة ودسائسهم.

ثالثا: نقد التبّاني للخضري حتّى لا يكون كتابه مرجعا معتمدا

تظهر أهمية المراجع العلميّة المعتمدة عند أهل العلم من أساسيات العلم عند التبّاني وتبرز هذه النزعة عند نقده لكتاب تحذير العبقري

(1) التبّاني، إتحاف ذوي النجابة، مصدر سابق، ص 123، 124.

(2) محمد العربي التبّاني، اعتقاد أهل الإيمان بنزول المسيح آخر الزمان، مطبعة بابا الحلبي، 1950، ص50.

وهي مجموعة محاضرات انتقد فيها الخضري الخلافة الراشدة وافترى على الأنصار وبني هاشم وعلى علي وعلى عمر، كما طعن في عموم الصّحابة الموجودين عند مقتل عثمان وزعم أن أعلاماً كانوا متطلّعين لولاية الأمر واتّهمهم بالهوادة في نُصرة عثمان، وقد بيّن التبّاني مقصده من ردّه على الخضري بقوله: «ومن مصائب علم الرّواية والتّاريخ أن يصير الخضري هذا قدوة ومرجعا لكل متسوّر على التّأليف في التّاريخ فقد ألّف بعده عبدالوهاب النّجار تاريخ الخلفاء فقلّده في جميع خطله، ورأينا بأعيننا أن جماعة من الأساتذة اشتركوا في تأليف تاريخ مختصر ،فجعلوا محاضرات الخضري في قائمة كتب التّاريخ المعتبرة التي يرجعون إليها[1].

فهدف التبّاني من رسالته إبراز خطأ الخضري وانتقاد زيفه وأباطيله حتى لا يُعدَّ كتابه مرجعا علميا يعوّل عليه؛ لأنّ كتابة التّاريخ عند التبّاني تخضع لشروط الرّواية من الثّقة والعدالة كما يؤكّد المسؤولية التي يجب أن يضطلع بها المدرّسون من تنقية التّاريخ من الشّوائب والزّيف خطأ لعقول الناشئة الّذين لا يملكون أدوات النّقد والتمحيص .

رابعا: التبّاني يدعو إلى تحقيق الروايات وإرجاع كلّ فن لأهله المبرزين

إن مثل هذه الدعوة من التبّاني تظهر فيها المنهجية الدقيقة التي نحن في أشدّ الحاجة إليها، فالتباني ينكر على ابن خلدون إنكاره للأحاديث

(1) محمد العربي التبّاني، تحذير العبقري من محاضرات الخضري أو إفادة الأخيار ببراءة الأبرار، بيروت، دار الكتب العلميّة 1984م ط2، ج2، ص 45.

بمجـرّد أن هناك طوائف أخـرى مخالفة لنا في العقيـدة روتها، والتبّاني بهـذا النهج لا يردّ الأحاديث بمجرد رواية المخالفة بل ينظر إليها بنقد علم الرّواية وما قال فيها العلماء المثبتون، وهو إذ ينتقد ابن خلدون فهو إنما ينتقد بعض أخطائه التي وقع فيها، وقومه العلماء خاصّة في مقدمته منهـا ردّه لأحاديث كثـيرة وحكمه عليها بمجرد رأيه، ومنها زعمه أن أبـا حنيفة لم يرو إلا سـبعة عـشر حديثا ومنها تخطئته للحسـين بن علي ومدحـه لمعاوية ومنها تفنيده لخلافة علي بكلام معسـول، ويضيف إلى رده هـذا مجموع ما ألّفه علـماء الحديث المبرزون في خروج المهدي منها السيوطي، السخاوي وابن حجر وغيرهم .

خاتمة

بعـد هذا العرض الوجيز لمنهج العلاّمة التبّاني في الكتابة والتّأليف، يمكن القول بـأن مؤلّفاته تُعدّ بحوثا علميّة أكاديمية بالمفهوم الحديث في كتابة الرسـائل الجامعية، من حيث تحديد الإشكالية، وبيان أسباب اختيـار الموضوع والتعرّض بالذكر للدّراسـات السّـابقة، وكذا تحديد المنهج المتّبع، مع نقده للمصادر المعتمدة في مؤلّفاته.

بالإضافة إلى اعتماده منهج النّقد العلمي والمقارنة والترجيح، وتحلّيه بالأمانة العلميّة في النَّقل والدقة في الفهم والتأويل.

المنهج التّعليمي والتربوي
عند الشّيخ محمد العربي بن التبّاني الجزائري

د. خير الدين شترة
جامعة المسيلة

المقدمة[1]:

(1) ومصادر ترجمته المتوفرة: عبد الفتاح أبو غدة، **إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشّيخ عبد الفتاح**» تع. محمد بن عبد الله آل رشيد، ط1، مكتبة الإمام الشّافعي، 1419م، ص 377. – محمد سعيد بن محمد ممدوح «**تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع**»، طبعة دار الشباب، ص 371. – محمد مختار الفلمباني، «**بلوغ الأماني بالتعريف بشيوخ الفاداني**» (مخطوط) ج9.. راوه عبد الفتاح بن حسين جامع، «**المصاعد الراوية إلى الأسانيد والكتب والمتون المرضية وسير التراجم**، ط1، 1984م – 1404هـ، ص16. – عبد الله محمد غازي، **نظم الدرر في اختصار نشر النّور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر**،(**مخطوط**)، – عمر عبد الجبار، **سير تراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر**، ط3، مكتبة تهامة، 1403هـ. – زكريا بيلا، **الجواهر الحسان**، تح. عبد الوهاب أبو سليمان ومحمد إبراهيم علي. – حسن الجوادي وأحمد صالح، **تطوير التعليم بالمملكة**.– عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، **باب السلام في المسجد الحرام ودور مكتباته في النهضة العلميّة والأدبية الحديثة**، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، 1427هـ.– عبد الله بغدادي، **الانطلاقة التّعليمية في المملكة**. – محمد ياسين بن محمد الفاداني، **قرة العين في أسانيد شيوخي من أعلام الحرمين** (مخطوط مصور من مكتبة الشيخ) – محمد علوي مالكي الحسني، **فهرست الشّيوخ والأسانيد السّيد علوي مالكي**. – عبد الله غازي، «**نثر الدر في تذييل نظم الدرر في تراجم علماء مكة من القرن الثالث عشر إلى الرابع عشر**»، (مخطوط)، انظر هامش – الشّيخ عبد الفتاح، «إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات»، ص377.– إعداد زاوية راس الوادي، «**من أعلام علماء المسجد الحرام** (السيرة الذّاتية لمحمد العربي التبّاني بقلمه)»، – صالح بن أحمد الأركاني، **فتح العلام في أسانيد الرجال وأثبات الأعلام**، (مخطوط مصور من مكتبة

لا ريب أن نوعية الشّخصيات والأسر التي غادرت الجزائر أثناء تلك المراحل الأولى للاحتلال كانت في الغالب على مستوى الرقي والمنزلة، ويكفي أن نستحضر أسماء وسير بعض تلك الشّخصيات والأسر المهاجرة ونتعرف على شيء مما قُدِّر لهم أن يُنجزوه في ديار مغترَبهم وما ظفروا به من اعتبار حيثما حلوا، لندرك حجم الخسارة التي مني بها الوطن نتيجة ظاهرة الهجرة التي عرفها يومذاك، فلا نستغرب إذا ما رأينا العلماء يُفتون بعدم جواز هجرة العلماء مخافة أن يلحق الضرر بالناس حين يفتقدون التأطير الفقهي والشرعي.

فقد أفتى الشّيخ «علي بن الحفاف» بعدم جواز هجرة العالم إلا عند الضرورة: «بقاء العالم للناس خير له من انتقاله لنفسه»[1]، لقد كانت الجزائر قبل الاحتلال تتوفّر على احتياط مهمّ من الكفاءات المعرفية، فعلى الرّغم مما يُقال عن أحوال المسلمين عامّة خلال نهاية القرن 19 م وما قبله، فإنّ الجزائر كانت تتوفّر على احتياط هام من الكفاءات مما يدُلّ على أنّ العطاء الثّقافي في الوطن لم يكن شحيحًا ولا عقيمًا، وإنّما على العكس من ذلك كان عطاءً مثمرًا؛ بدليل أن الزمر من حملة العلم والذين غادروا الوطن في تلك المراحل كانت زمرًا مهمّة من حيث النّوعية والكفاءة،

الشيخ)،- صالح الأركاني، «**الإعلام بوفيات الأعلام**» (مخطوط). - عبد الله المعلمي، **أعلام المكيين**.- فاروق بنجر وآخرون، **تاريخ التعليم في مكّة المكرّمة ورجالاته**. - مجلة «**الحج والعمرة**» العدد 10 السنة الستون شوال 1426 هـ/ نوفمبر، ديسمبر 2005م. - «**جريدة الندوة**» العدد 9411 في 7 / 6 / 1410 هـ. - «**مجلة الحج**»، العدد 28 ربيع 1، 2 سنة: 1394هـ.

(1) الحفناوي (أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، الجزائر: مطبعة بيير فونتانه، 1907م ص82.

وأنها أثبتت مستواها ببروزها في البيئات حيث حلَّت واكتسبت الشأن والمكانة[1].

إنّ هجرة العالم لا تعني هجرة فرد أو أسرة إنما هي هجرة مكتبة تضم نفائس المعرفة إلى موطن الهجرة، وكانت ظروف اجتماعية وسياسية وعلمية ودينية دفعت كثيرًا من علماء الجزائر إلى الهجرة، وكانت في مقدمة الظروف الاجتماعية: عدم وجود مدن علميّة زاهرة[2]، فمدينة الجزائر وهي العاصمة آنذاك كانت معدومة النّشاط العلمي، وقد وصفها الرحالة العبدري بقوله: «وقد دَخَلتُها سائلاً عن عالم يكشف الكربة، أو أديبٍ يُؤنس الغُربة فكأنني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض النوق»[3].

ولعل هذا هو سبب هجرة الشّيخ العربي بن التبّاني، فالرجل كان نابغة زمانه في الحفظ والفهم والإدراك، ولذا رأى أو سار على رأي شيوخه بضرورة الاستزادة من العلوم الدينية والدنيوية، والتي يبدو أن شغفه بها لم يتحقق في المعاهد والمدارس العلميّة الناشئة على ذلك العهد والتي تأثرّت سلباً بالاتّجاه الجديد الذي غلب على الطرق الصّوفية المهيمنة على أغلب زوايا ومعاهد العلم في الجزائر،

(1) عشراتي(سليمان)، العالم الإسلامي خلال القرنين 18م،19م، الجزائر: دار الغرب للنشر، 2004 ص 225.

(2) عميراوي (أحميدة)، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر: دار الهدى، 2005م، ص 55.

(3) يخلف (رمضان)،عبد الرحمان الثعالبي ومنهجه في التفسير،ماجستير كلية أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر: 1992م ص13.

فقـرر الضرب في الأرض ابتغاءً التعلّـم والتفقّه، يُضاف إليها الطغيان الاسـتعماري الفرنسي المسـلَّط على رقاب الجزائريين والـذي بلغ مداه في الفـترة التـي هاجر فيها الشّـيخ مـن الجزائر بصدور قانـون التجنيد الإجبـاري عـلى الشّـباب الذين هم في سـنه، وعـلى العموم فـإنّ عدم وجـود مـدن علميّـة زاهرة كانـت دافعاً لكثـير من طلبة العلـم حينها والأمثلـة عـلى ذلك كثيرة وليس هذا مقامها[1]، ولا ننسـى أن الشّـيخ عندما سـافر إلى تونس كان عمره لا يتجاوز 15 سـنة، وبدأ التّدريس بمدرسـة الفلاح في مكّة المكرمّة والحرم المكّـي وعمره كان لا يتجاوز 20 سـنة، وهـذا ما يُوحي لنـا بعبقرية هذا الرّجل وعلو كعبه في شـتى العلوم التي درسها وألَّف فيها، مع العلم أنّه ألّف أوّل كتاب له وعمره 26 سنة، وهو ما جعلنا نجزم منذ البدء أن أهمّ سبب في هجرته المبكرة – وبحسـب تعبـير العبدري- هو أنّـه افتقد في زمانه لعالم يكشـف له الكربة، أو لأديبٍ يُؤنس له الغُربة.

ودراستنا اليوم هي لعلَم من أعلام القرآن، وواحدٍ من أجلّة المشايخ المحدّثـين في النصف الأول من القرن المـاضي بالحرمين الشريفين، إنّه الإمام الفقيه، المحدّث، الحجّة، الحافظ، الزاهد، الورع، المحقّق الكبير، فارس المنقول والمعقول، البركة، الشّـيخ الهمام العلاّمة محمد العربي بن التبّاني بن الحسـين بن عبد الرحمن بن يحيى السـطيفي (نسـبة إلى مدينة سطيف بشرق الجزائر).

(1) راجع كتابنا: – الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، مج01، مج02، مج03، الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع، 2011.

1. مولده ونسبه الشريف:

أ. نسبه:

هـو الإمام العـالم العلاّمـة المحدّث الفقيه «سـليل الدوحـة النّبوية المباركة» سيدي محمد العربي بن التباني[1] بن الحسين الجزائري الحسني المالكـي بـن عبد الرحمن بن يحيى بن مخلوف بن أبي القاسـم بن علي بن عبد الواحد[2] ... وفي أحد التقاييد للشّيخ العربي بن التبّاني يرفع نسبه إلى إدريـس الأكبر ويجعله حسـنياً، حيث يقـول: «عبد الواحد بن عبد الكريـم ابـن محمد بن عيسـى ابن عبـد العزيز بن عبـد الرحمن بن عبد السـلام بن مسـعود ابن أيوب بن محمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل بن الحسن السّبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم»[3].

غـير أن الشّـيخ العربي بـن التبّـاني في تعريضه على ذكر نسـبه الذي كتبه بخط يده قد جعله حُسـينياً لا حَسـنياً حيث يقول الشّـيخ العربي بن التباني: «نسـب سـيّدي عبد الواحـد في طريقه هكـذا: ابن يحي بن

(1) نسـبةً إلى **أولاد تبـان** وهي قريـة صغيرة في الحدود بين ثلاث ولايـات إدارية بالجزائر الشرقيـة «المسـيلة، برج بوعريرج، سـطيف» لا تبعد عن سـطيف الولايـة إلا بحوالي 60 كلـم، وسـكانها بطن من بطـون بني هلال القحطانيـين أما راس الـواد «تُنطق بدون همزة فوق الألف»، قرية مستحدثة في أرض ريغة، القبيلة العربية الكبرى وهي الآن دائرة تابعة لولايـة بـرج بو عريريـج بعد أن كانت في التقسـيم الإداري القديم تابعة لولاية سـطيف. راجع: – الشهاب، ج6، ص60.

(2) **من أعلام علماء المسجد الحرام** (السيرة الذّاتية لمحمد العربي التبّاني بقلمه)، من إعداد زاوية راس الوادي (ص: 1).

(3) **تقييد في نسب العربي التبّاني** (مخطوط)، ورقة: (1)

إبراهيم بن عبد الواحد[1] ابن عبد الله بن عبد الرّحمان بن الفضيل بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد الله ابن محمّد بن عبد الكريم بن عليّ ابن عبد السّلام بن مشيش ابن أبي بكر ابن فرياح بن عيسى ابن أبي قاسم بن مروان بن حيدرة بن محمّد بن عبد الله ابن الحسين بن فاطمة». غير أن لعياضي ابن الأخضر يقول: «إن نسبته إلى الحسين غلط قطعاً لأنّ عبد السلام ابن مشيش حّسني قطعًا عند النّسّابين ولأن أكثر شرفاء المغرب حَسنية وفيهم حُسينية لكنهم قليلون انتهى».

وفي طريقة ثالثة جاء نسبه هكذا: «عبد الواحد بن عبد الكريم بن محمّد بن عيسى بن عبد العزيز بن عبد الرّحمان بن عبد السّلام بن مسعود بن أيوب بن محمّد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنىّ بن الحسن السّبط بن عليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنهما».

وفي طريقة رابعة جاء نسبه هكذا: «عبد الواحد بن زيّان ابن محمّد بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر إلخ...» وفي طريقة خامسة عند الشّيخ لعياضي بن الأخضر هكذا: «عبد الواحد بن عبد الكريم ابن حمزة بن محمّد بن عليّ ابن ريسون صاحب جبل الأعلام بن عبد السّلام

(1) في هامش النسخة ما يلي: «نسب عبد السلام بن مشيش كما في «سلوة الأنفاس» للسيد محمد بن جعفر الكتّاني هكذا: «عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن عليّ بن حرمة بن عيسى بن سلام بن محمّد المزوار بن علي الملقب: «حيدرة» بن محمّد بن إدريس الأنور بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسين المثنى بن الحسن السبط بن عليّ بن أبي طالب، وهذا هو الصّحيح والمعول عليه قطعًا في نسب عبد السلام وبه عُرْف ما سقط من الرجال وما غير في شجرة الشّيخ الأعياضي رحمه الله وغيره، ا.هـ.

ابـن مشـيش إلى آخر نسـب عبد السّـلام المتصـل بإدريس بـن عبد الله، ونسـب عبد السّلام بن مشـيش[1] وتتمة نسب هذا الأخير يذكرها محمّد بن جعفر الكتّاني[2] في كتابه «سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أُقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس» هكذا: «عبد السّـلام بن مشـيش بن أبي بكر بن عليّ بن حرمة بن عيسـى بن سلام بن محمّد بن المزوار بن عليّ الملقّـب «حيدرة» بن محمّد بن إدريـس الأنور(الأزهر) وهو الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسـن المثنى بن الحسـن السّبط بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم انتهى».

فأكثر هذه الطّرق اتفقت على نسـبة عبد الواحد إلى عبد السّـلام بن مشـيش ولكن اختلفـت في زيادة بعضها على بعـض وفي تبديل بعض الأسـماء مكان بعـض ولم أقف على تاريخ كافل بأنسـاب أشراف أهل المغرب الأدارسـة وغيرهـم، وإنّما رأينا ذلك متفرقـاً في كتب متعدّدة، وهـذا مع إجماع المؤرخـين من المغاربة والمشـارقة كابـن خلدون وابن الأثـير وابن جريـر الطّبري وغيرهم على صحّة نسـب إدريس بن عبد الله الكامل وأنّه دخل المغرب فارًا من العباسـيّين وصارت له فيه دولة توارثها بنوه دهرًا، وكَثُر نَسْله هناك والله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(1) هو عبد السـلام بن مَشِـيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن محمَّد بن سلاَّم بـن مـزوَار بن حَيْدرة، توفى شـهيدًا سـنة 622هـ، أنظـر – علال الفاسي، مرآة المحاسـن، ص–ص (343 – 370).

(2) محمـد بـن جعفر بن إدريس بن الطائع بن إدريس بن محمّد الزمزمي بن محمد الفضيل بن العربي بن محمّد بن علي، سـيخ الإسـلام، وحافظ عصره، السّياسي المجاهد، والصوفي الكبير، مؤرخ فاس، توفى بفاس سـنة: [1345هـ/ 1926م]، أنظر: منطق الأواني بفيض تراجم عيون أعيان الكتاني، (152 – 156).

فهو من ذرية سيدي القطب عبد السلام بن مشيش قدَّس الله سره بن أبي بكر بن علي بن محمد حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن علي حيدرة بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[1].

والمعروف أنّه بعد محنة موسى بن العافية الجلوتي، تبدَّد شمل الأشراف وتفرّق جمعهم في كافة أصقاع العالم الإسلامي «ولما جار عليهم فروا من محلّ سلفهم وتفرَّقوا على البراري والقفار خوفاً من الفضيحة والعار.. وقال الإمام السيوطي: خرج من مدينة فاس سبعمائة رحيل من الشرفاء فارين إلى جبال غمرة، واثنا عشر رحيلاً إلى جبال تادلة، وسبعة إلى فجيج، وأربعة إلى سجلماسة، وعشرة إلى سوس الأقصى، وأربعة إلى دكالة، وأربعة إلى تامسنة، وسبعة إلى

(1) للتوسع يراجع: - أبي معاذ بن أحمد بن إبراهيم، الدرة اللطيفة في الأنساب الشريفة، الكويت: مركز البحوث في مبرة الآل والأصحاب، 2007، - محمد بن الشارف ابن سيدي علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول r، تونس: المطبعة التونسية، 1929، ص 35 وما بعدها- جمال الدين أحمد بن علي الحسيني، إيران: مطبعة أنصاريان، 1996م- البلاذري أحمد بن يحي (ت279هـ)، أنساب الأشراف، تح. محمد باقر المحمودي، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1974م- محمد بن مخلوف، شجرة النّور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة: المطبعة السلفية، 1349هـ.- تاج الدين بن محمد بن حمزة بن زهرة الحسينى، غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار- مصر: مطبعة بولاق، 1310هـ- محمد الرفيعى (ت1052هـ)، الأنوار النّبوية في آباء خير البرية، قال الزركلى: بخطه في خزانة الرباط (1238)، ثمانية فصول أولها ذكر العرب الذين هم أصل هذا النسب- الزبيدى محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسينى(ت 1205هـ)، إتحاف سيّد الحي بسلاسل بني علي- أبى القاسم محمد بن أحمد بن على بن إبراهيم الزيانى، تحفة الحادي المُغرب في رفع نسب شرفاء المغرب- شمس الدين محمود ابن السّيد على المرعشى (ت 1338)، السلاسل الذهبية في الأنساب العلوية- يوسف بن عبد الله جمل الليل، الشجرة الزكية في الأنساب- محمد الحسينى الجلالى، جريدة النسب لمعرفة من انتسب إلى خير أب.

أوطاط، وسبعة إلى وادي عزة، وثمانية إلى الساقية الحمراء، وعشرة إلى الأندلس»[1]، وما يهمّنا من هؤلاء الأشراف هو السّيد أبو بكر بن علي بن محمد (الملقّب بحرمة) بن عيسى بن سليمان (الملقّب بسلام)، بن مزوار بن علي (الملقّب بحيدرة) بن محمد بن إدريس الأزهر...، الذي فرَّ إليه جد جده سلام بن مزوار إلى جبل الأعلام (جبل العلم)[2]، وقد خلّف السّيد أبو بكر سبعة أولاد (منهم السّيد مشيش)، ومنهم جاءت فروع أولاد خريف وأولاد رحمون وأولاد زروق وأولاد ريسون وأولاد المؤذن وأولاد العربي وأولاد الكلاح...[3] وعبد السلام بن مشيش هذا عاصر صلاح الدين الأيّوبي في جهاده ضد الصليبيين.

وعليه فإنّ العربي بن التبّاني في نسبه حسَني وليس حُسَيني كما أورد في سيرته التي كتبها بخّط يده، فهو من الفروع المشيشية، وعلى كلّ حال نسبه متّصل بسيّد البشر عليه الصّلاة والسلام، وفي الحقيقة إنّ هذا ما وجدته سائدًا عند أغلب منتسبي أولاد عبد الواحد حالياً؛ بل حتى أنني لم أعثر على عالم أو فقيه أو مدرّس منهم على مدى القرون الثلاثة الأخيرة من يُردف اسمه بلقب حسَني أو إدريسي أو شريف على ما هو سائد في عُرْف من ينتسبون إلى الدوحة النبوية؛ أي كما يفعل أحفاد الشّيخ أبو القاسم الهاملي وغيرهم، وحتى محمد العربي نفسه الذي عاش في زمن تفتخر فيه النّاس بنسبها الشريف

(1) علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول ﷺ، ص35

(2) **جبل العلم**: جبل من سلسلة جبل الريف يقع بالشمال الغربي من المغرب بالقرب من ثلاث مدن هي: تطوان، شفشوان، العرائش، وبالضبط على بعد 11كلم وثلاث مئة متر من قرية سوق خميس بني عروس، على الخط العرض35.31، وخط الطول 5.51

(3) نفسه، ص36.

يندرُ أن تجد له رسالة أو مقالة أو كتابا يُدبج به اسمه مرفوقًا بمفردة الحَسني أو الشريف، ويبدو أن زهده في الألقاب لخّصه بقوله في ترجمته الذّاتية السابقة: «والناس كلهم مِن آدم وآدم مِن تراب».

وعن شجرته القريبة وفروع عبد الواحد يذكر في ترجمته الذّاتية: «هذه شجرة على بعض فروع عبد الواحد إلى الآن: عبد الواحد ترك ولدًا واحدًا اسمه عليّ، ثمّ عليّ ترك أربعة من الأولاد: **الأول** منهم: خليفة، جدّ أولاد بوعكاز. **الثاني**: المبروك جدّ أولاد المبروك. **الثالث**: سيّدي بلقاسم جدّ أولاد سيّدي بلقاسم ويقال لهم: القبالة. الثلاثة أشقّاء أمّ واحدة. **الرابع**: عبد الله جدّ الشّنافحة وأمه حنّاشية.

ثم سيّدي بلقاسم ترك ثمانية من الأولاد: **الأول** منهم: عبد القادر، والحاج، وأحمد، ومحمّد، وعبد الحفيظ، الخمسة أشقاء أمّ واحدة. ومخلوف والموهوب وعبد الله الثلاثة أشقاء أمّ واحدة، وجملة الأولاد الثمانية أولاد سيّدي بلقاسم.

ثمّ عبد القادر ترك: ثمانية من الأولاد. **الأول** منهم: أبو حفص جدّ الأحفاص. **والثاني**: عبد الواحد جدّ الأحدادة. و**الثالث**: عليّ جدّ الأفاضلة. و**الرّابع**: الطيب جدّ البشير وأولاد البلخير. و**الخامس**: محمّد المسعود جدّ أولاد بن الكبير. و**السادس**: أحمد جدّ الإخوان. و**السّابع**: محمّد السّعيدي جدّ أولاد سي أحمد الصّغير. و**الثامن**: عبد الحفيظ. [و] ثلاث بنات.

ثم الحاج ترك ولدين: **الأول**: محمّد جدّ السّلاحجة أولاد سي الحاج الشّريف بن ساعد والمسعود بن ساعد.

و**الثاني** عبد الله جدّ الصّالح بن عبد الله بن الحاج ثمّ أحمد ترك اللّبّاد فقط.

ثم اللّبّاد ترك ثلاثة من الأولاد. **الأوّل**: بلقاسم أبو محمّد، والعياضي. و**الثاني**: العياضي ترك عليّا أبو العمري وترك أيضًا محمّد أبو سليمان وأخيه، وترك أيضًا عبد الكريم أبو عبد الله والعيد. و**الثالث**: أحمد ترك ثلاثة أولاد.

الأول: الطّيب أبو العيساوي. و**الثاني**: المبروك أبو الأخضر والمسعود.و**الثالث**: اللّبّاد أبو بوعكاز وبلقاسم.

والجملة يسمّون اللّبابدة أولاد أحمد.

ثم محمّد جدّ الطّيافية ترك ولدين الطيب، والعياضي ثمّ عبد الحفيظ ترك بنتين فقط، الخمسة أشقاء، أولاد سيّدي بلقاسم ثمّ الثّلاثة الأشقاء أيضاً أولاد سيّدي بلقاسم. **الأول**: مخلوف جدّ المخالفة ترك ثلاثة أولاد. الأوّل: عبد العزيز أبو المخالفة، وأبو حفص أيضا جدّ الأحفاصة السّعيد بن الحاج ومن معه وأبوعبد الرّحمان جدّ التّبّان بن الحسين ومن معه، والدّيلمي جدّ الدّوالمة. والثاني: من أولاد سيّدي بلقاسم الأشقاء. الموهوب ترك ولدين: سعد وسعيد، والثالث من أولاد سيّدي بلقاسم. الأشقاء عبد الله ترك: أربعة من الأولاد، الأول: سيّدي محمّد جدّ العواسة،المكّي والطّاهر، الثاني: الأعمش جدّ الزّرارقة، والثالث: بن العبّاس جدّ الأعبابسة. والرابع: الغربي جدّ الغرابة، تمت فروع أولاد سيّدي أبي القاسم بن عليّ بن عبد الواحد فقط.

ب. مولده:

ولد بقرية (الشـلخة) أولاد عبـد الواحد ناحية راس الوادي[1] من أعماق سـطيف شرق الجزائر سنة 1315هـ/ 1898م[2]، وهو العلّامة المـؤرخ النسـابة الثّقة المشـارك في كل الفنون معقولهـا ومنقولها التبّاني السـطايفي المغـربي ثمّ المكّـي المالكـي[3]. و يكنى بأبي عبـد الله[4]. وله أسـماء مسـتعارة كلقب أبو حامد مرزوق الذي اضطرَّ الشّـيخ العربي التَّبَّاني للكتابة باسـمه بسبب تنامي حركة الحنابلة المتشدِّدين بالمملكة، والضُّغوطات المسـتمرَّة على المخالفـين في المذهب والعقائد. وبفحص عابـر عثرت عـلى كتاب بعنوان: «التوسـل بالنبـي والصالحين وجهلة الوهابيين» وصاحبه هو: أبي حامد بن مرزوق الدمشقي الشامي. وقد طبعه حسين حلمي سنتي 1975 و 1984. ولا أدري إن كان لعنوان هذا المؤلّف وكنية صاحبه علاقة بمترجمنا.

2. نشأته ونشاطه التعليمي :

أ. طلب العلم في مسقط الرأس:

نشـأ في كنف خاله السـعيد بن العيساوي، ذلك أن والده توفي وهو صغير، فكفله خاله، وتحت رعايته حفظ القرآن الكريم في كتّاب قريته

(1) وهي حالياً تتبع إدارياً ولاية برج بوعريرج بالشرق الجزائري.

(2) **من أعلام علماء المسجد الحرام** (السيرة الذّاتية لمحمد العربي التبّاني بقلمه)، من إعداد زاوية راس الوادي (ص: 1).

(3) **إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشّيخ عبد الفتاح (ص: 377)**

(4) **من أعلام علماء المسجد الحرام** (السيرة الذّاتية لمحمد العربي التبّاني بقلمه)، من إعداد زاوية راس الوادي (ص: 13).

راس الـوادي فتلقى تعاليمه الأولى حيث حفظ القرآن الكريم وعمره أثنـا عـشر عاماً (عـام 1909)، وحفظ معه بعض المتـون الصغار مثل الآجروميـة والعشـماوية والجزرية، ثـمّ شرع في التّوسـع وبدأ في تلقي بعـض المبـادئ في العقائد والنّحـو والفقه على يد عدّة مشـايخ وعلماء أفاضل من أجلِّهم الشّيخ عبد الله بن القاضي اليعلاوي رحمه الله تعالى. كـما تربّى على يد خاله الشّـيخ السـعيد بن الطاهر بـن محمد بن علي بن عبد الواحد بن العيسـاوي (1878 – 1971) مؤسّـس زاوية الشّيخ العيساوي ومدرسـتها القرآنية[1]. وبعد تلقيه مبادئ في بعض الفنون، حثَّه على السفر إلى الزيتونة، ثمّ انتقل إلى الحرمين الشريفين إلا أنّه بقي يتردّد على الزاوية والمسـجد العتيـق وكان يُلقي الدّروس ويتعاون مع خاله في حلِّ مشـاكل النّاس بحنكتة وعلمـه، ولا يمكن أن نتصورّ أن الطالـب محمـد العربي بنبوغـه وفطنته أنّه لم يذهب قصد الاسـتزادة في العلـم والفقـه إلى جبل النّـور الذي يضم زاوية شـلاّطة: «وهي زاوية مقصـودة لقـراءة كتـاب الله عزّ وجـل، يأتونها من كل فـج عميق، كما أنّ طـلاّب الفقه يقصـدون زاوية ابن أبي داود في تاسـلنت، والذي في علمي أنّه لم يقرأ القرآن في شلاّطة، ولم يتعلّم الفقه في تاسلنت، ولو قرأ

(1) **زاوية الشّيخ العيساوي**: مؤسسها الشّيخ **السعيد بن الطاهر بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن العيساوي**، تأسست خلال سنة 1326هـ – 1908م، ثمّ انتقل مقرها إلى راس الوادي سنة 1918م بعد أن كان في طوملة، ومن الذين علّموا بها الشّيخ عبد الله بن القاضي اليعلاوي، والشّيخ الشريف التونسي وآخرون..توفي مؤسسها سنة (1391 هـ – 1971م)، وخلفه فيها ابنه الشّيخ إبراهيم صويلح بن السعيد إلى غاية الآن، وفي عهده تطورت الزاوية كثيراً وتأسّست المدرسة القرآنية منذ 2007م، إلى جانب الزاوية التي طورت هي الأخرى من أدوارها الوطنية والاجتماعية، والمدرسة الحالية مشيدة في بنائها ونظامها التلمذي على الطريقة العصرية ويُعينه في ذلك ابنه البار الشّيخ عبد الله.

وتعلَّـم في غيرهـا يعتبر عند المحبّين ناقص الـسر، والدليل على هذا أن النّـاس إذا أرادوا تعظيم طالب أو فقيه نسـبوه إلى إحدى الزاويتين»[1] إذن تكوين ابن التبّاني الطالب كان من جهة تكويناً دينيًا ولغويًا وأدبياً يستمد جذوره من الثقّافة التراثية وتكوين تُجسِّده الكثير من المؤلَّفات التي درسـها وحفظها، ومن جهة أخرى هل يمكن أن نتصوّر أنّه وهو في طريقه إلى الحاضرة التونسية قصد الالتحاق بجامع الزيتونة لم تخطر بباله زيارة عابرة لزاوية نفطة العزوزية التـي كانت خلال تلك الفترة مركـزاً كبيراً يُشـعّ بالعلم والتصـوّف، ولأنه لا يوجد بـين أيدينا الآن مـا يثبـت ذلك، فإنه لا يمكـن أن نُقرَّ بهذا هكذا روايـة من غير تثبّت، فبعض المصادر المدوّنة والشـفوية نفت أن يكون قد سـافر إلى نفطة أو إلى أقبو وشـلاّطة وتاسـلنت لكنّها تتفق على أنّه أخذ العلم عن بعض أعلامها في مواضع أخرى غير ما ذكرنا.

والمعلـوم أن ابـن التبّـاني لم ينقطع عـن منطقته بعد سـفره الأول إلى الحجـاز في عزّ الحرب الكونيـة الأولى (1914 – 1918) حيث رحل إليها عام (1914م – 1332هـ)، فنشـاطه بمسـقط رأسـه كان متميزاً، تعليـماً وتأطيراً وتنظيماً لشـؤون الزاوية والمسـجد، وهو صاحب فكرة تأسـيس مدرسـة الفلاح التي كان يُـشرف عليها الشّـيخ محمد بن علي صويلح المتخرّج من الزيتونة، والذي يلتقي في النسب بالعيساوي، كما كانت للشّـيخ رحمه الله علاقة وطيدة مع الأديب الفاضل محمد بلحاج

(1) الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، تح. د. خير الدين شترة، الجزائر، دار كردادة، 2012، ص540.

العياضي بوحفص، حيث كانت له معه جلسات وكان يراسله من مكّة المكرمّة وكان ينعته في مراسلاته بالأديب الفاضل، وكانت له أيضاً علاقة حميمة مع الشَّيخ البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي والعربي التبسي، وأبي يعلى الزواوي إمام جامع سيدي رمضان بالعاصمة حينها.

ب. **الرحلة إلى تونس:**

ويتجلّى نبوغ محمد العربي بن التبّاني في أنّه استطاع على غرار الطلبة المتفوّقين، اختصار مراحل الدّراسة والسفر مباشرة إلى جامع الزيتونة، حيث رحل إلى تونس العاصمة عام (1330هـ - 1911م) وعمره لم يتجاوز 14 عاماً ولا ندري إن كان قد توقف في طريقه إليها بمعاهد وزوايا العلم المنتشرة في الشرق الجزائري والغرب التونسي كقسنطينة وتبسة ونفطة .... على ما ذكرنا سابقاً، حيث قضى في جامع الزيتونة أقلّ من ثلاث سنوات بدون دفتر، أي أنّه لم يكن مسجّلاً في دفاتر الجامع أو في أحد فروعه بل كان مستمعاً حراً كعامة النّاس، ذلك أننا لم نعثر في أغلب ما تناولته أيدينا من سجلاّت وأرشيف جامع الزيتونة المشتّتة والمبعثرة في عدّة أماكن منها الأرشيف الوطني، ومبنى إدارة التجهيز بمقرين، والكلية الزيتونية وفي أماكن أخرى، على أي وثيقة تُثبت انتظام الطالب ابن التبّاني بجامع الزيتونة، وعليه فإنّ صاحبنا لم ينل أي شهادة من الجامع نقيض ما ذهب إليه منّ ترجموا له بأنه حائز على شهادة التطويع التي لا يمكن أن تحاز قبل أن يقضي صاحبها خمس سنوات بحسب القوانين التنظيمية التي كانت سائدة (أي قبل إصلاحات1911)، ويبدو أن الظروف الاقتصادية والسياسية

والأمنية التي كانت تمر بهـا تونس آنذاك (كحادثتي الترمواي والجلاز وإرهاصـات الحرب العالمية الأولى) جعلـت صاحبنا يفكر في الخروج مبكـراً من تونس، وما لم تذكره المصادر التي تناولته بالترجمة هو أنّه قد التقى بالشيخ المكّي بن عزوز مما يُوحي بطريقة غير مباشرة أن مترجمنا قد زار زاوية نفطة العزوزية .

لقـد كان محمـد العربي شـاباً مختلفاً عـن أقرانه فقد تيسّرت له سـبل التحصيـل العلمـي كما لم تتيـسّر لغـيره، ولم يكن هذا الاجتهـاد ليَضيع هبـاءً فقد بـرز بين طلبة منطقته وحتى طلبة الزيتونة، وتلك ميزة لم يكن يحصل عليها سوى أبناء مشايخ الزوايا والطرق الصّوفية ومن أبناء المدن الكبرى ربّما لتوفّر الظروف النفسية والاقتصادية لهم أكثر من غيرهم.

والمصادفـة هـو أن رحلته هـذه إلى تونس قد توافقت مـع رحلة عالم الجزائـر الشّـيخ عبد الحميد بـن باديس أيضـاً الذي سـبقه إليها بثلاث سنوات (1908م) وكان على رأس قائمة الخرّيجين في شهادة التطويع عام 1911م، حيث قضاها ابن باديس استثناءً في ثلاث سنوات بحسب نظام الادعـاء حينها، ففي 06 أوت 1911م نشرت جريدة المشـير لصاحبها الجزائري الطيب بن عيسـى قائمة الناجحين في شهادة التطويع، ويذكر الشّيخ محمود شمام أنّه لما توفي شيخ الإسلام «محمود ابن الخوجة» رئيس النظـارة العلميّة وخلفه شـيخ الإسـلام «أحمد بيرم» شـارك في امتحان شـهادة التطويـع (60) طالباً لم ينجح منهم سـوى (12) فقط[1]، وكان على رأس قائمة الناجحين عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس من قسـنطينة وجاء ثامناً الجزائري الآخر زين العابدين ابن الشّـيخ الحسين

(1) الشابي (أنس)، «زملاء ابن باديس»، الهداية، ع 154. تونس: 2003م، ص59.

(أخ الخضر حسين والمكي بن الحسين)[1] وتصادف التحاق محمد العربي بالجامع الأعظم مع تخرج ابن باديس قلّل من فرصة لقاءهما مع بعض، وكما ذكرنا سلفاً لا يوجد أي أثّر للشّيخ محمد العربي في قائمة المنتظمين بالجامع. والراجح أنّه لم يمكث بها إلا أشهراً قليلة، درس أثناءها على أيدي بعض مشايخ جامع الزيتونة المشهورين في الفقه والنّحو والصّرف والتجويد أداءً وقراءةً مع حفظ بعض المتون الأخرى. وبتفحُّص دفتر شهادات التلامذة بالجامع الأعظم عدد 7245 المؤرخ في أوائل المحرم سنة 1328هـ، ورقة 2 – 47 نجد أن قائمة شيوخه قد ضمت كلا من: بلحسن النجار الذي أخذ عنه شرح العضدية في آداب البحث، ومحمد بن يوسف الذي أخذ عنه صحيح البخاري وشرح المحلى على جمع الجوامع، ومحمد الطاهر بن عاشور الذي أخذ عنه المطول على التلخيص والمرزوقية على ديوان الحماسة، ومحمد النخلي القيرواني الذي أخذ عنه المغني بالحواشي والمزهر للسيوطي، والشريف بن سعيد المقرئ الذي أخذ عنه ختم القرآن الكريم بقراءات الأئمة السبع.....

ج. **الرحلة إلى الحجاز:**

وبعد هذه الرحلة شدَّ الرحال إلى مكّة المكرمّة أولاً وهو الأرجح، وكان ذلك عام (1332هـ – 1914م) لأنّ هناك من ذكر بأن رحلته العلميّة إلى الحجاز بدأت بالمدينة قبل مكة وهذا خطأ، فاستناداً إلى جملة من المصادر الموثّقة نجد من تطابقها أن الرّواية القديمة خاطئة، وتعلّمه بالمدينة المنوّرة إنّما كان بعد عودته من الشّام التي فرَّ إليها

(1) «المتطوعون في العلوم»، المشير، تونس: 06 / 08 / 1911م، ص2.

اضطـراراً حيث أخذ طريق الحجّ (معان- المدينة) وبمكة المكرمة لازم كبـار علمائهـا؛ خاصّـة منهم المالكيـة كالعلامة **أحمد بـن محمد خيرات الشـنقيطي** التندغـي وقـرأ عليه الدردير على مختصر خليل والرسـالة البيانيـة للدردير أيضًا وسـيرة ابن هشـام، والمعلّقات السـبع، وديوان النابغـة، وسـنن أبي داود، وقطعة من أشـعار الصحابة، وله مقروءات أخـرى عليـه[1]، ولازم بها أيضاً العالم المشـهور العلّامة **حمدان بن أحمد الونيـسي** المتـوفى عـام (1336هـ - 1917م). والمتواتـر أن الشّـيخ حمـدان قد هاجـر إلى الحرمين سـنة 1910م حيث انتصـب للتدّريس هنـاك وبعد عدّة سـنوات في التعليم بطيبة الطيّبة توفي الشّـيخ حمدان، عام (1330هـ - 1912م)[2]، والراجح أن سـنة وفاته أبعد من ذلك بكثير، لكون زيارة ابن باديس للحجاز أين التقى بشـيخه هناك كانت بشكل مؤكدّ عام (1333هـ - 1913م)[3].

وقـرأ عليه ابن التبّاني تفسـير الجلالين وألفية ابـن مالك بشرح ابن عقيـل، ومـن مشـايخه أيضاً الشّـيخ **عبـد العزيـز التونسي** المتـوفى عام (1336هـ - 1917م) حيـث قرأ عليه كماً كبيراً مـن موطأ مالك مع الـشّرح للزرقـاني وقطعة مـن مختصر خليل من بـاب الإضافة إلى باب المنادي من ألفية ابن مالك بشرح الأشموني، وممن لازمه الشّيخ العربي

(1) تشـنيف الأسـماع: ص 371. نثـر الجواهر والـدرر في علماء القـرن الرابع عشر: ص 1344.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص(130 - 140).

(3) راجـع: - الشـهاب، ج8، مـج 13، (10 / 1937) ص355، بـيروت: دار الغرب الإسلامي، 2007م.

ابن التبّاني اللّغوي الشّـهير **محمد محمود الشـنقيطي**. قرأ عليه المعلّقات السبع، ونظم أنساب العرب للبدوي الشنقيطي ولـه مشايخ آخرون .

د. الرحلة إلى الشّام ثمّ العودة إلى الحجاز:

وبعـد دخـول الشريف حسـين بن عـلي المدينـة المنـوّرة، ارتحل إلى دمشـق الشـام، كما خرج من المدينة أكثر سـكّانها منها بحكم تداعيات الثّورة العربية الكبرى التي كان يقودها الشريف حسـين وأولاده ضد الدولـة العثمانية وبدعم من دول الحلف الثلاثي (بريطانيا – فرنسـا– إيطاليا)، ومن الراجح أن الشّيخ العربي ابن التبّاني إنما ولاؤه كان لدار الخلافـة وهو أقـرب في عاطفته إلى ما دعا إليه الطيب العقبي والبشـير الإبراهيمـي في نصرتهـم للجامعة الإسـلاميّة، ومواجهة المـدّ القومي المناهـض لفكرة الخلافة الإسـلاميّة، والذي تزعّمه الشريف حسـين، لهـذا نجد أن مصير الثلاثـة كان واحداً، وهو الفـرار من الحجاز مخافة انتقـام زعماء الثّـورة الشريفية منهم، ولم يتسـنى لابن التبّـاني والعقبي العـودة إلى الحجـاز حتى بعد انتهاء الحـرب العالمية الأولى(1919هـ) إلاّ بعد نجاح آل سعود في حكم المملكة السعودية. ولعلّ من مؤيدات هـذا التصـور هو أنّه في سـيرته التي كتبها بخط يـده وعندما وصل إلى هـذه المرحلة من حياته سـمّى الثّورة العربية بنهضة وتحاشـى وصفها بالثورة. حيث يقول في ذلك: «بعد نهضة الشريف الحسين بن علي على التُّرك ارتحلت إلى دمشـق الشّـام كما خرج من المدينة أكثر سكّانها منها بحكم الضّرورة الحربية على الناس»، ومن جهة أخرى نجد أن الشّيخ ابن التبّاني متأثّر أيّما تأثر بفكر شـيخه مشتاق أحمد الهندي؛ هذا الأخير

كان من علماء المسجد النّبوي الشريف في بداية القرن العشرين، ووقف في وجه الثّورة العربية الكبرى مما أدى إلى نفيه إلى مالطا أولاً ثمّ إلى الهند، وهناك تولى رئاسة العلماء بمدينة ديونيد[1].

وبعد هذه المحنة ارتحل ابن التبّاني إلى دمشق الشام، كما خرج من المدينة أكثر سكّانها منها بحكم الضّرورة الحربية على النّاس، فمكث فيها أشهراً في ظروف عصيبة لم يتمكن فيها من الدّراسة على العلماء، فكان يتردّد على مكتبة الملك الظاهر المعروفة بالظاهرية، وأحياناً يزور دار الحديث الأشرفية، غير أنّه كان كثير التردّد على مسجد بني أميّة للصلاة فيه، ثمّ خرج من دمشق قاصداً أم القرى والحروب لازالت تشتعل، فقطع طريقاً ممتلئة بالمخاطرات وتحمَّل فيها المكابدات، إلى أن وصل مكّة المكرمّة في عام (1336هـ/ 1917م)، فاستأنف الدّراسة في حلقات العلم بالمسجد الحرام، فحضر على الشّيخ عبد الرحمن الدهان (تـ1337هـ) دروساً في فنون شتى، وممَّا قرأه عليه شرح زكريا الأنصاري على إيساغوجي بحاشية العطار وحضر على الشّيخ مشتاق أحمد الهندي بعد عودته من منفاه شرح القطبي على الشمسية بحاشية السّيد بحث التصورات فقط. وختم مع الإقراء أو المطالعة كثيرًا من الكتب الكبيرة والصغيرة والأجزاء والرسائل جلّها في الطّبقات والتّراجم والتّاريخ.

وفي عام (1338هـ/ 1919م) عُين مدرّساً بمدرسة الفلاح بمكّة المكرّمة نظراً لتفوقه ونبوغه فاشتغل بالتدريس تحت أروقة الحرم المكّي

(1) للتوسع راجع: -مازن صلاح مطبقاني، ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دمشق: دار القلم، 1999. ص35.

الشريـف، فتخرّج من تحت يديـه تلاميذ كثيرون أصبحوا بعده قناديل تضيء ساحات الحرم، منهم العلاّمة الكبير سيدي محمد علوي المالكي الحسني المكّي الذي يلقب بـ محدّث الحرمين، وفي ذلك يقول في ترجمته بخط يده: «بعد نهضة الشريف الحسـين بن علي على التُّرك ارتحلت إلى دمشـق الشّـام كما خرج من المدينة أكثر سـكّانها منها بحكم الضّرورة الحربيـة عـلى النّاس، فمكثت في دمشـق الشّـام أشـهرًا لم أتعلم شـيئاً، ولم أسـتطع أن أعالـج الحياة في تلـك الظروف العصيبـة غير أني كنت أتردّد كثيراً على مسـجد بني أميّة للصلاة فيه، ومرّة زرت مكتبة الملك الظاهر وأخرى زرت دار الحديث الأشرفية ثمّ خرجت منها قاصداً أمّ القرى- والحروب لازالت تشـتعل في جميع أنحاء البلاد العربية- عن طريق سكة الحديد الحجازية إلى جرف الدراويش محطة قبيْل معان عن شـماله ثمّ منه براً إلى العقبة فوصلتها بعد شـهرين تقريباً بعد مكابدات ومخاطرات، ومكثتُ أكثر من شـهر عند عـرب الحويطات، ووصلت إلى مكّة المكرمّة شهر رجب سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة [1336هـ / 1917م]. وحـضرت بالمسـجد الحـرام دروس العلاَّمـة المحقّـق مولانا الشّـيخ عبد الرحمـن الدَّهان رحمه الله تعـالى فممَّا قرأت عليه شرح الشّـيخ زكريا الأنصاري على إيساغوجي بحاشية العطار، وتوفي رحمه الله تعالى رحمة الأبرار سـنة سـبع وثلاثـين وثلاثمائة وألف للهجـرة [1337هـ/ 1918م]. وحـضرت عـلى إمام العلـوم العقلية العلاّمة الشّيخ مشتاق أحمد الهندي شرح القطب على الشمسية بحاشية السّيد بحث التصورات فقط».

وللشـيخ زيارات عديدة إلى بلدان عربية تعـدّدت وتنوعت أهدافها كلّهـا كانت له معينـاً وزاداً إضافياً دعَّم به جهـوده العلميّة والتعليمية؛ أكثرهـا كانـت إلى مـصر والشـام والجزائر وتونـس والسـودان، وهذه الرحلات كانت في الأغلب لأهداف علميّة، ولهذا فهي تُعدّ من مصادر تكوينـه العلمي رغـم أنّه كان في بعضهـا غايات أخرى منهـا طبع كتبه خصوصـاً في الشّـام ومصر، ومنهـا ما كان بهدف عـلاج زوجته الأولى (الأندونيسـية السّـيدة جواهـر التي كانـت قد عانت كثـيراً من مرضها الخبيث «سرطان المعي» لمدة تزيد عن عشرين سنة) و لذات الغاية سافر إلى السـودان خلال الفترة (جمادى الثانية 1370هـ - مارس 1951م) وخلال الفترة (جمادى الأولى 1385هـ - سبتمبر 1965م) أين أصيب بمرض اضطره للعودة إلى الحجـاز، كما زار تونس مرات عديدة آخرها في 1966م وكان قـد أقـام عنـد رجل جزائري اسـمه حسـان بوجدرة وهـو صاحب مقهى في باب السـويقة بالعاصمة التونسـية. وبحسـب المراسـلات التـي بين أيدينا فإنّ الشّـيخ ابـن التبّاني قـد زار الجزائر عدّة مـرات منها ثلاث مـرات مؤكدة بعـد الاسـتقلال «1962 - 1970» منها: خـلال الفترة «صفر 1386هـ - جـوان 1966م» وخلال الفترة «1390هـ - 1969م» بحسب ما نملك من وثائق حالياً.

وبمناسـبة الحديـث عن وضعـه العائلي فالمعـروف وبنـاءً على جملة الوثائق التي بين أيدينا أن الشّـيخ محمـد العربي قد تزّوج مرتين، الأولى واسـمها جواهر وهي سـيدة أندونيسـية من جزيرة جاوة، عانت كثيراً مـن مـرض السرطان وتوفّيـت عام 1960م بحسـب مراسـلة بتاريخ

19 رجب 1380هـ، الموافق لـ26 جانفي 1961م، موجّهة إلى السّيد الطيب بن محمد بن الحاج الحسناوي، ولم تترك له أولاداً، وتزوّج بعدها ابنة أختها (السيدة مصباح تُنكر) وكان عمرها آنذاك 28 سنة. حيث أخبر في رسالة أخرى بتاريخ 29 ذي القعدة 1379هـ الموافق لـ جويلية 1960م أن أمها تُسمى أم السعد، ولها أخ يسمّى صالح سيتزوج فيما بعد بابنة الشّيخ إبراهيم بن السعيد بن العيساوي (تسمى السّيدة خيرة)، وقد كان الشّيخ محمد العربي موفقاً في إحداث هذه المصاهرة بين الطرفين، لأنه بسببها ما زالت العلاقات الاجتماعية قائمة بين العائلتين رغم بُعد المسافة وطول الزمن الذي توفي فيه الشّيخ التبّاني، والسّيدة مصباح لازالت حية إلى الآن (2013م) وهي مقيمة بجدة السعودية.

3. **شيوخه :**

منهم الشّيخ عبد الله بن القاضي اليعلاوي، والشّيخ أحمد بن محمد خيرات الشنقيطي، والشّيخ حمدان بن أحمد الونيسي القسنطيني، والشّيخ محمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي، والشّيخ عبد العزيز الوزير التونسي، والشّيخ المكّي بن عزوز التونسي، أحد أحفاد الولي الصالح سيدي محمد بن عزوز البرجي ناشر الطريقة الرحمانية بالجنوب الجزائري، والشّيخ بلقاسم بن منيع القسنطيني، والشّيخ أحمد الخياط الزكاري، والشّيخ أحمد بن عبد السلام البناني، والشّيخ محمد بن محمود الشنقيطي، والشّيخ عبد الرحمن الدهّان، والشّيخ فالح بن محمد

الظاهري والشّيخ محمد بخيت المطيعي، والشّيخ محمد جعفر الكتّاني، والشّيخ محمد عبد الحي الكتاني، والشّيخ مشتاق أحمد الهندي، والشّيخ طاهر بن عمر الرياحي، والشّيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، والشّيخ شنون الجزائري، وغيرهم رحمهم الله تعالى أجمعين.

4. **إجازاته:**

ويمثّل العلاّمة محمد العربي التبّاني امتداداً لسلسلة الأثبات من علماء الحديث النبوي، وحفظا لسلسلة الإسناد التي خصّ الله بها هذه الأمّة المحمدية. وللشّيخ رحمه الله رأي في تتبع أسانيد الشّيوخ حيث قال: «وتتبع أسانيد الشّيوخ وكثرة الأثبات غير مستحسن عندي، كما أن قلّة ذلك حتى يؤدي إلى انقطاع السّند عيب في الفقيه» وللشّيخ بن التبّاني مشايخ كثيرون وأسانيد وإجازات لم يصلنا منها إلا مخطوطتان وترجمة بخط يده.

5. **نشاطه التعليمي والتربوي:**

ولقد كانت حلقات الدّروس في المسجد الحرام كثيرة، ويبدأ التّدريس فيه من بعد صلاة الفجر وانفلاق نور الصّباح إلى بعد صلاة العشاء، ولا يقلّ طلاّب كل حلقة من الدّروس عن أربعين طالباً، وبعض الحلقات يبلغ طلابها مائة نفس: «وكان فيه من دروس المشايخ ما يأتي ونذكرهم بدون ترتيب: درّس السّيد زيني دحلان، السّيد عبد الله زواوي، الشّيخ عمر باجنيد، الشّيخ سعيد يماني، الشّيخ علي مالكي، السّيد صالح شطا، الشّيخ محمد حبيب الله الشنقيطي،

الشّيخ زيدان الشنقيطي، الشّيخ عمر حمدان، الشّيخ محمد العربي الجزائري... ولكل من هؤلاء العلماء عدّة مؤلفات من علوم شتى وإنَّ منهم مَنْ تخصّص في التدريس في المسجد الحرام ومنهم مَنْ كان يدرّس فيه وفي المدارس والمعاهد، ومنهم مَنْ كان يشغل القضاء».

لقد مرَّ التّدريس في المسجد الحرام «في القرن الرابع عشر الهجري» بمراحل تاريخية متفاوتة لكل مرحلة شخصيّتها وخصائصها تتقارب أحياناً وتتفاوت أحيانا أخرى، ومردّ ذلك إلى تأثّرها بالأجواء الاجتماعية والسياسية التي تحيط بالبلاد. فإذا ما ازدهرت فيها الحياة المعيشية واستمتعت بمناخ سياسي هادئ انتعشت وازدهرت وإذا كان غير ذلك تقلّصت وتضاءلت.

ومثال ذلك أنّه لما نشبت الحرب العالمية الأولى عام (1332هـ - 1338هـ/ 1914 - 1919م) ضعفت الحركة التجارية إلى حد بعيد وضاقت مصادر الرزق بالناس وانقطعت المنافذ والسبل التي تمدّ مكة بالحجيج ونتيجة لذلك انقطع النّاس عن طلب العلم وانصرف العلماء إلى طلب الرزق وكسب العيش، بما يضمن لهم ومن يعولون الحياة الضرورية، الأمر الذي لفت نظر حكومة ذلك الوقت فقامت بمحاولة إعادة الحياة العلميّة إلى ما كانت عليه من نشاط سابق فأصدرت نظامًا يساعد عل إعادة النّشاط العلمي وتحريكه فخصّصت مرتّبات شهريّة للعلماء والمدرسين بالمسجد الحرام وصدر النظام في كتيب عنوانه «الطوالع السّنية في نظام التّدريس بمسجد مكة المحمّية».

علماً بأن علماء الحرم المكّي رفضوا كل مساعدة يُشتَّم منها أجْرٌ على التّدريس بالمسجد الحرام، وذلك لأنّ العلوم ليس الغرض منها

الاكتساب كما قال صاحب «كشف الظّنون» ولأن العلماء في الصدر الأول للإسلام امتنعوا عن قبول الأجر لقاء تعليمهم القرآن الكريم والسّنة النّبوية الشريفة، ولما كان ما حدث أمر لابد من الإشارة إليه فإنه استوجب الأمر لزاماً تقسيم مراحل التّدريس بالمسجد الحرام في هذا القرن إلى ثلاث مراحل وهي:

أولا: المرحلة الأولى من مطلع القرن الرابع عشر الهجري حتى عام 1332هجرى.

ثانيا: المرحلة الثانية من عام 1332هـ الذي وافق صدور نظام التّدريس بالمسجد الحرام بتوقيع أمير مكة المكرمة.

ثالثا: المرحلة الثالثة والتي تبدأ عام 1347هـ حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري: في هذه الفترة برز العلماء الأعلام والأساطين الكبار منهم عالمنا الجليل شيخ العلماء في عصره الشّيخ محمد العربي ابن التبّاني مدرسًا وشيخًا للعلماء[1].

وكان أسلوبه في التّدريس كعادة مدرِّسي المسجد الحرام يعتمد على أساليب علميّة متعدّدة ومختلفة للتدريس. فقد ذكر المستشرق هور خورنيه أنّ المدرّس في الوقت الحالي- أي سنة 1302هـ - يختار في تدريسه أساليب مختلفة منها:

1 - قراءة أحد الكتب على تلاميذه مع أحد التعليقات والشروح التي وضعها أحد العلماء السّابقين، وبذلك يقتصر عمل المدرّس على ضبط قراءة النصّ، إلى جانب التفسير العرضي للعبارات الصعبة.

(1) من أعلام علماء المسجد الحرام:ص، 14.

2 – قراءة أحد الكتب، وذلك بقراءة النصّ وإيراد مختلف وجهات النظر التي كتبها العلماء حوله، وفي العادة يقوم المدرّس بتحضيرها من مراجع مختلفة.

3 – أن يقوم المدرّس بتجميع الشروح المختلفة، ويستخرج منها مصنّفا يقوم بتأليفه وطبعه.

إنّ الطريقة الأولى هي أسهل الطرق المتّبعة في التدريس، ولذلك يكثر منها العلماء الذين يتبعونها في إلقاء محاضراتهم. ونجد من بين المدرّسين في الحرم من يتّبع الطريقة الثانية، ويحتاج هذا الأسلوب في العادة إلى براعة وإتقان علوم اللّغة العربية[1].

• **طريقة تدريس الشّيخ محمد العربي التبّاني في الحرم المكي:**

تعدُّ طريقة تدريس **الشّيخ محمد العربي التبّاني** للحديث النّبوي في الحرم المكّي والتزام الآداب المرعية في ذلك امتدادا لما كان متعارفاً عليه عند المتقدّمين من السّلف الصالح من هذه الأمة، فمن آدابه في مجلس الحديث:

1 – **استقبال القبلة**: لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إنّ لكلّ مجلس شرفًا، وإنّ أشرف المجالس ما استقبل به القبلة)[2].

2 – **أن يكون قارئ الحديث على الشّيخ في الحلقة فصيحًا، جهوريّ الصّوت**. قال السمعاني: «وينبغي أن يتخيّر للاستملاء

(1) صفحات من تاريخ مكة: 325.

(2) الجامع لأخلاق الراوي: 2 / 62.

أفصح الحاضرين لساناً، وأوضحهم بياناً، وأحسنهم عبارة، وأجودهم أداء»[1]. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «ما أخذنا من ابن شهاب الزهـري إلا قراءة، كان مالك بن أنس يقرأ لنا، وكان جيّد القراءة»[2]. وقال الإمام أحمد: «كان الشّافعي- رحمه الله- من أفصح النّاس، وكان قد قرأ على الإمام مالك، وكانت تعجبه قراءته لأنه كان فصيحاً»[3] .

3 - **أن يكون ذا فهم بالحديث وبعض مصطلحاته**: قال الشّـافعي: «قـرأت الموّطـأ على مالـك، ولم يكن على مالك إلا مَنْ قـد فهم العلم، وجالس أهله، وقد كنت سمعت من ابن عيينه»[4] .

4 - **قراءة سورة من القرآن الكريم**: لما روي عن أبي نضرة قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا ليذكروا العلم قرءوا سورة.[5]

5 - **الإستنصات لسماع الحديث**.

6 - **قراءة البسملة والحمد لله رب العالمين**. قال الخطيب البغدادي: «فـإذا أنصـت النّاس قـال: بسـم الله الرحمـن الرحيم، الحمـد لله رب العالمـين. وإنّما اسـتحببت له ذلك لما روي عن النّبـي أنّه قال: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع». وروي: «لم يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع»[6].

(1) أدب الإملاء: 39.

(2) المصدر السابق: 94.

(3) المصدر السابق: 94.

(4) المصدر السابق: 94.

(5) المصدر السابق: 94.

(6) أدب الإملاء: 107.

7 – **الصّلاة على النّبي** ﷺ: قال السمعاني: ثمّ يقرأ سورة ويقول: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، و الصّلاة على رسوله محمد النّبي وآله أجمعين وصحبه الأكرمين، ويدعو للشّيخ ويقول: ورضي الله عن الشّيخ، وعن والديه، وعن جميع المسلمين[1].

ومن آداب المقرئ أثناء قراءته للحديث النّبوي: الصّلاة على النّبي ﷺ، والترحّم على الصّحابة رضي الله عنهم. قال الخطيب البغدادي: «إذا انتهى في الإسناد إلى ذكر النّبي ﷺ استحب له الصّلاة عليه، رافعاً صوته بذلك وهكذا يفعل في كل حديث عاد فيه ذكره ﷺ».[2]

8 – **الترضّي عن الصّحابة رضوان الله عليهم.**

9 – **الدّعاء للشّيخ.**

10 – **الاستغفار والحمد لله عند انتهاء المجلس.**

11 – **الدّعاء للحاضرين.** قال السمعاني: «ويستحب للمستملي إذا فرغ أن يدعو للحاضرين، ولمن كَتَبَ، بالرحمة والمغفرة».[3]

هذه الآداب أو جُلُّها كان يلتزم بها **الشّيخ محمد العربي التبّاني** في تدريس الحديث النّبوي في الحلقات العلميّة المنتشرة في ربوع الحرم المكّي الشريف.

• **العلوم التي درَّسها الشّيخ محمد العربي بن التبّاني بالمدرسة:**

كان الاهتمام على مر التّاريخ ينصبُّ في المقام الأول على تدريس العلوم الشّرعية البحتة، وفي الفترات المتأخّرة تدريس العلوم المساعدة.

---

(1) أدب الإملاء: 98.

(2) الجامع لأخلاق الراوي: ج3، ص 103.

(3) أدب الإملاء: 107.

وبتأمّل ما سطّره ابن التبّاني في ترجمته نستطيع أن نحدّد العلوم التي تكفل بتدريسها في نصف قرن من الزمن وهي:

1 – القرآن الكريم والقراءات، وتفسير القرآن الكريم.

2 – الحديث النّبوي الشريف وعلومه.

3 – العقيدة.

4 – الفقه على المذاهب الأربعة، وأصول الفقه، وعلم المنطق، والمواريث، والمناسك، وفضائل الصّوم وآدابه.

5 – اللّغة العربية، والنّحو والصّرف، والبلاغة، والشعر، والخط. كما درّس عدّة فنون أخرى منها السيرة والتجويد والتّاريخ الإسلامي. بالإضافة إلى أنّه كان يجيد أيضاً علم الحساب والفلك والميقات.

وفي سنة (1338هـ – 1919م) عُيِّن مدرّساً بمدرسة الفلاح بمكّة المكرّمة نظراً لمزيد تفوقه ونبوغه، فقد درّس بالحرم المكّي بالإضافة إلى ما سبق ذكره في عدّة فنون أخرى منها التفسير والأصول والبلاغة والتّاريخ الإسلامي وختم الطلاب عنده بالحرم كتباً كباراً منها: الصحيحان وموطأ مالك والجامع الصّغير للسيوطي وتفسير البيضاوي والنسفي وابن كثير وجمع الجوامع وسيرة ابن هشام وعقود الجمان والإتقان في علوم القرآن ومغني اللبيب لابن هشام، وغيرها. وبالتالي شغل الشّيخ محمد العربي التبّاني مناصب تدريسية عدّة منها: مدرّساً بالمسجد الحرام من عام 1338هـ إلى عام 1390هـ، ثمّ مدرّساً بمدرسة الفلاح من عام 1338هـ إلى عام 1390هـ. ثمّ

مدرّساً بالمسجد النّبوي الشريف أثناء الزيارات. ثمّ مدرّساً بمدرسة المطوفين بالمسجد الحرام عام 1347هـ.

• **منهجه في التدريس:**

ويعتبر العلاّمة محمّد العربي صاحب مدرسة فكرية غذّاها بعلمه ورعاها وشملها باهتماماته، فقد سطعت عليه أنوار البيت العتيق والروضة والقبر الشريف، فكانت حياته كلّها علما وتعلّما. حيث شارك ابن التبّاني بقية علماء الحجاز في التّدريس بالمسجد الحرام في حصوة باب القطبي، وبين بابي الباسطية وزيادة وفي حصوة باب الزيادة، وأخيراً في رواق باب العمرة، وفي داره العامرة في الشامية وفي العتيبية كعادة علماء البلد الحرام، وكان من عادته أن يدرّس بالحرم خمس ليال بالأسبوع مع الدّروس التي كان يلقيها بالفلاح، ثمّ اقتصر أخيراً على التّدريس ليلتي الجمعة والسّبت يدرّس فيهما الجامع الصّغير للحافظ السيوطي والسّيرة، مع استمرار الدّروس في منزله لكبار الطلبة يومياً من الضحى إلى الظهر، ثمّ في المساء في شتى الفنون.

ويتحلّق الطلبة، والحجّاج، والزوّار، والمعتمرون حوله فيبدأ الدّرس بالحمد، والصّلاة على رسول الله ﷺ والحوقلة، وقراءة آيات من القرآن أو الأحاديث النّبوية التي تحثُّ على طلب العلم، والصّبر في تحمُّل مشاقه ثمّ يطلب من الطلبة الاستقامة، والتقوى، وقد امتاز وتميّز بمنهج علمي فريد في التدريس:

– فقد كان درسه يتميّز بشرح العبارة شرحاً موجزاً مكثفاً ومدعماً بالشواهد والأمثلة، وذكر فوائد التّاريخ ليربط بها الموضوع.

– كما كان يُردف أثناء شرح الدّرس حكايات عن الصّالحين، والعلماء الأعلام السّابقين، وحكايات الملوك والأمراء، وتراجم لبعضٍ منهم إذا اقتضى المقام ذلك، ذاكراً المراجع، والمصادر التي استقى منها درسه من باب الأمانة العلميّة.

– كما برع الشّيخ في المناظرة وإبطال الشّبهات والردّ على أهل الأهواء والمبتدعين، كما أنّ له شغفاً بالتوحيد وعلم الكلام ولذلك فهو صاحب حجّة وبرهان وإقناع مع رحابة صدر شديدة، وتواضع جمّ وزهد كبير، وله حظ كبير في علوم الفرائض والفقه ولعلّ أحبَّ علم لديه هو الفقه والتوحيد، وفي ذلك يقول عنه تلميذه الشّيخ يوسف عبد الرّزاق – من علماء الأزهر الشريف–: «ومن ألمع علماء مكّة المكرمّة الذين طلعوا في سمائها بدوراً، وفاضوا في أرجائها بحوراً، ورفعوا راية العلم عاليةً خفّاقة شيخنا العلاّمة الفقيه الأصولي المحدِّث المفسِّر اللّغوي... المؤرّخ الثّقة أبو عبد الله محمد العربي ابن التبّاني... لا زالت مجالس العلوم بهمته معمورة، وأحاديث فضائله في الخافقين مأثورة، ولم يُقنعه أنّه قد تخرَّج عليه الكثير من العلماء الذي تزدهي بهم الأقطار، وتتزين بهم الأمصار، بل سمَت همته إلى التّأليف والتصنيف، فأخرج للناس كتباً نافعة ضمنها علوما عالية يُحِق بها حقاً أو يُبطل بها باطلاً ولسان حاله يقول:

دافعتُ عن حقٍ يحاول ذو هوى ... إظهاره للناس شيئاً منكراً....»[1]

(1) محمد العربي بن التبّاني بن الحسين المغربي السطايفي، تحذير العبقري من محاضرات الخضري «إفادة الأخيار ببراءة الأبرار»، ج–1 الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ص31.

قال عنه اسحاق عزوز – عضو مجلس الشورى ومدير مدرسة الفلاح بمكّة المكرّمة-: «شيخنا العلاّمة الشّيخ محمد العربي التبّاني الجزائري ثمّ المكّي، جمع الله له من طرافة الحديث وغزارة العلم وسعة المعارف والجمع بين الرّواية والفهم، أصوليّ ومفسّر ومحدّث له قدم عالية في التّاريخ العربي الإسلامي، قد شغل أوقاته منذ نشأته بمذاكرة العلم وتدريسه، والتّأليف فيه، وتصانيفه ممتعة، وقد جرد نفسه في تآليفه للدفاع عن الدين ورجاله...»[1].

وعن هذه المرحلة كتب يقول: «وفي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف وُظفتُ مدّرسا في مدرسة الفلاح علّمت فيها من ذلك التّاريخ إلى هذا اليوم فنون النحو، والبيان والفقه، والحديث والتفسير والفرائض والصّرف والتّاريخ الإسلامي والتجويد والسّيرة النبوية، كما ألقيت هذه المدّة دروسا في المسجد الحرام في الحديث والتفسير والبلاغة والتّاريخ الإسلامي، وختمت فيه -ولله الحمد- كتبا كبارا منها: (موطأ الإمام مالك والصحيحان وتفسير النسفي والبيضاوي وابن كثير وسيرة ابن هشام وعقود الجمان، والإتقان في علوم القرآن)، وختمت مطالعة كثير من الكتب الكبيرة والصغيرة منها: (فتح الباري شرح صحيح البخاري) و(الإصابة) و(الدرر الكامنة) و(لسان الميزان)، و(الاستيعاب)لابن عبد البر، و(كتاب جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر، و(أسد الغابة في تراجم الصحابة)، و(الكامل في التّاريخ) لابن الأثير، و(تاريخ ابن جرير)، وكثيرا

(1) نفسه، ص3

مـن تفسـيره، و(الكامل) للمـبرد، و(طبقات ابن سـعد) طبـع ليدن، وتواريـخ ابـن الـوردي، وأبي الفـدا ملك حمـا، و(خِطـط مصر) لابن المقريزي، و(المرآة) لليافعي، و(البدر الطالع) للشوكاني، و(تاريخ ابن خلـدون) بمقدِّمته، والقهرمـاني، والجبرتي، وابن الشـحنة، و(وفيات الأعيـان) لابن خلـكان، و(ذيلـه)، و(البدايـة) لابن كثـير، و(تذكرة الحفَّاظ) للذهبي، و(طبقات الفقهاء الشّـافعية) لابن السّبكي، ولعماد الديـن بن كثـير، و(طبقات الحنفية) لعبد الحـي اللكنوي، مع تعليقاته للنعسـاني و(مختـصر طبقات الحنابلـة) لابن رجـب، و(مناقب الإمام أحمد) لابن الجوزي، و(طبقات المالكية) لابن فرحون، و(ذيله) لأحمد بابـا التنبكتي، و(عنوان الدراية في تراجم علماء بجاية)، و(البسـتان في تراجـم علماء تلمسـان)، و(معالم الإيـمان في تراجم علـماء القيروان)، و(الإحاطـة في تاريخ غرناطة)، و(سـلوة الأنفـاس ومحادثة الأكياس فيمن دفن من العلماء بمدينة فاس)، و(مختصر تاريخ إفريقيا).

ومن الكتـب المتنوعة: (نفح الطيب في تاريخ الأندلس الرطيب، ولسـان وزيرها ابـن الخطيب، وفتح المتعـال، و(العقد الفريد) لابن عبد ربـه، و(معجم البلدان لياقوت)، و(النخبـة الأزهرية)، و(الملل والنحـل)، لابن حزم وللشهرسـتاني، ومنهاج السّـنة النبويّـة وكثيراً مـن الفتاوى للشّـيخ أبـي العباس ابـن تيميـة، وزاد المعـاد، وإعلام الموقعيـن، وبدائـع الفوائد، ومفتاح دار السـعادة، والجواب الكافي لتلميذه ابن القيّم، والآداب الشّـرعية لابن مفلح، وإظهار الحق لابن الوزيـر اليماني، والعلم الشـامخ للمقبلي، وأكثر الأغاني لابن الفرج

الأصفهاني، وأكثر الحاوي في الفتاوى للسيوطي، وطبقات النحاة والاقتراح في أصول النّحو له أيضاً، وكثيرًا من كتب أصول الفقه كالفروق للقرافي وتحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر، والجغرافيا الحديثة وتاريخ الخلفاء للسيوطي، والمسامرة في أعيان مصر القاهرة له أيضًا، والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التّاريخ للسخاوي وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ورحلة ابن جبير والعياشي والورتيلاني وابن بطوطة، وقلائد العقيان ومطمح الأنفس في ملح أهل الأندلس للفتح خاقان، والغيث المنسجم للصفدي ورسائل كثيرة غير هذه كما استفدت كثيرًا من الأقران».

• **حلقة الشّيخ محمد العربي التبّاني وطريقته العلميّة في التدريس:**

يقول الدكتور حسن بن محمد سفر: «كانت لشيخنا – ويقصد ابن التباني– في المسجد الحرام حلقة درّس في باب الزيادة ثمّ في الحصوة أمام باب العمرة مابين المغرب والعشاء ليلتي الثلاثاء والجمعة يتحلّق الطلبة والحجّاج والزوّار والمعتمرون حوله فيبدأ الدّرس بالحمد والصّلاة على رسول الله والحوقلة وقراءة آيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النّبوية الشريفة التي تحث على طلب العلم والصّبر على تحمّل مشّاقة، ثمّ يطلب من الطَلاّب الاستقامة والتقوى. وقد امتاز وتميّز رحمه الله بمنهج علمي فريد في التّدريس فقد كان درسه يتميّز بشرح العبارة شرحاً موجزًا مكثفًا مدعّماً بالشواهد والأمثلة وذكر

فوائـد التّاريخ ليربط بها الموضوع، كما كان. رحمه الله وأنار قبره. يُردف أثنـاء شرح الدّرس حكايات عن الصّالحين والعلماء الأعلام السّـابقين وحكايات الملوك والأمراء وتراجم لبعض منهم إذا اقتضي المقام. ذلك ذاكراً المراجع والمصادر التي استقى منها درسه من باب الأمانة العلميّة.

ومن أساليبه التدريسية أنه: «كان يسترسل في شرح العبارات الفقهية شرحاً واضحاً يستفيد منه المبتدئ والمنتهي والمتوسط، ويدعم ذلك بذكر الآيات القرآنية، والأحاديث النّبوية الشريفة المناسبة للمقام، معقبًا على درجـة الحديث، إن كان ضعيفـاً أو موضوعاً، ويذكر في بعض الأحيان سـند الحديث وسلسـلة رجالـه، كما أنّـه كان يُميز الـدّرس وخصوصاً إذا كان في المسـائل الفقهيـة متعرّضًا لآراء المذاهـب الأربعة ذاكراً أدلة وحجج المخالفين، ورادًا عليها، ومرجّحاً ما يراه من الكتاب والسـنة، وتِلّكم هي مَلَكَة العالم الفقيه المجتهد. وكان يجيب على أسـئلة السائلين من الطلاب، والحجاج، والمعتمرين، يُوضّح لهم المسـألة ببسيط العبارة والأسلوب الواضح المرصّع بالبلاغة والفصاحة»[1].

و«كان مما يتميّز به درسـه علمه الغزير بالغزوات، والتواريخ، وإذا غابت عنه مسـألة فكَّر قليلاً فاسـتحضرها وسـاقها مسـاقًا حسناً دون إرباك وارتباك، وكان وجهه يسـطع نوراً، وجبينـه مشرقاً زاهراً، وكان ملازماً لذكر الله لا يفتر عن الذكر، إلا بمطالعة كتاب أو تدريس، ماهراً في علم الفرائض، والتفسير، والمغازي، والسّير، والتّاريخ وهي فنّه»[2].

(1) للتوسع يُراجع: – محمد الطاهر الكردي المكّي، التّاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج، بيروت: دار خضر للطباعة والنشر، 2000، ص521.

(2) من أعلام علماء المسجد الحرام، ص (6 ـ 7).

6. منهجه في التربية والإصلاح:

جمع ابن التبّاني في حركته التربويّة والنهضويّة بين مختلف اهتمامات العصر التي تشغل بال أمّته، مثل: إصلاح الدّين، ونشر وتطوير اللّغة العربية، وبعث التّاريخ الصّحيح للأمة وإحياء أمجادها في نفوس الناشئة، والتعامل مع الحضارة الحديثة، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، وإعادة الثّقة إلى الأمّة بنفسها، ونشر العلوم والمعارف، واستحداث مناهج تربوية جديدة تبعث على التغيير المستمر، إلى غير ذلك من القضايا الحساسة، التي كان المجتمع يفتقر إليها خلال عصره.

- **التربية الأخلاقية والوطنية عند التباني:**

تعد الأخلاق عند ابن التبّاني، ميدانا آخر من الميادين التي ناضل فيها لخدمة «الأمّة» والمجتمع، وركّز عليها في حركته التربوية، والتي تدهورت في الأمّة الإسلامية إبّان العهد الاستعماري، نتيجة لانتشار الجهل وانحراف النفوس والعقول، وفساد العقيدة الدينية.

وبما أن الأمم بالأخلاق، إذا صلحت أخلاقها صلحت، وإذا فسدت أخلاقها فسدت، فإنّ ابن التبّاني اهتمّ بهذا الجانب، وذهب إلى التأكيد على أن الأخلاق تنبع من داخل الفرد، وبالتالي يجب العناية بإصلاح هذا الداخل قبل كلّ شيء، حتى يتمكن الفرد من إصلاح حاله من الخارج، وذلك طبقاً لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1].

(1) سورة الرعد، الآية 11.

والظواهر عند ابن التبّاني دلائل على البواطن، فإذا كان باطن الفرد صالحًا ومستقيمًا، كان ظاهره كذلك وليس العكس، ومن هنا ركَّز عمله في التربية على محاولة إصلاح ضمائر ونفوس النّاس عامتهم وخاصتهم، حتى تكتمل الشخصية الإنسانية لديهم من النّاحية الأخلاقية أوّلاً، وبعد ذلك بقية النواحي الأخرى.

وفي هذا الإطار اعتني ابن التبّاني من خلال كتابه المتميز «نزهة الفتيان في تراجم بعض الفتاك والشّجعان» بتربية الشّباب المسلم، تربية أخلاقية قويمة في المدرسة والمجتمع، من خلال ذكر الخصال النبيلة والمآثر الحميدة للعرب حتى قبل البعثة المحمدية كخصلة الكرم والجود والشجاعة والمروءة..ولأن التربية هي العاصم للفتى والفتاة من الانحرافات الخلقية والوطنية، ولأن الشّخص الذي لا يستطيع أن يوجّه سلوكه بنفسه، لا يمكن أن يؤتمن على مصالح الأمّة والوطن، ومن هذا المنظور كان ابن التبّاني يعمل من أجل المحافظة على التراث العربي الإسلامي، باعتباره فناً أو نشاطاً من أهمّ أوجه النّشاط في المجتمع، ومن هذا المنطلق أيضاً حدَّد الأهداف التربويّة في حركته التّعليمية والتأليفية.

وابن التبّاني مصلح توفيقي، يعمل في إطار الأصالة والمعاصرة، ومربّ إسلامي، لذا فإنه يستمد مقوّمات فلسفته في الإصلاح الديني والخلقّي والتربوي من روح الحضارة الإسلاميّة، ثمّ من واقع المجتمع، في ظل المعطيات الجديدة التي جاءت بمبادئ الحضارة الحديثة وعلى ذلك فإنّ أهدافه وغاياته التربوية، تتطابق في عمومها مع أهداف التربية الإسلاميّة، وتضيف إليها مبادئ التربية الحديثة.

إلا أن التربية عند ابن التبّاني تختلف عن التربية عند الغرب الأوروبي مثلاً، لأنّ التربية عند هذه الشعوب، تهدف إلى استقرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، أما التربية عند المصلح الجزائري فإنها تهدف إلى إصلاح الواقع إصلاحاً جوهرياً في كافة مناحي الحياة، نظراً لارتباطها بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي كانت قائمة في الأمّة العربية والإسلامية قبل خضوعها للاحتلال الأوروبي، بل ولعدم وجود منهجية تربوية، تتفق مع مقوّمات الأمّة وخصائصها التّاريخية بالمرّة، لأنّ المجتمع الإسلامي في تلك المرحلة، كان ما يزال يعيش في ظل سمات العصور الوسطى، بل كان معزولاً في غالبيته العظمى عن كل المراكز والمدن الحضارية، التي مسّتها مسحة الحضارة الحديثة[1] ولكن هدفه بالتأكيد هو إصلاح هذا الوضع من مختلف عناصره السّلبية، وإيجاد مجتمع جديد من جميع نواحيه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها.

وإذا كان هدف هذا المصلح هو إصلاح بنية المجتمع وتطويره، فمن الأحرى - إذن- أن يبدأ بالعنصر الأساس لعملية الإصلاح، وهو الإنسان أصل كل حضارة وصانعها، ونحن عندما نقول الإنسان فإننا لا نعني الرّجل وحده، وإنّما نعني الرّجل والمرأة على حدّ سواء، لأنّ ابن التبّاني قد اهتمّ في عمله التربوي بإعداد العنصرين معاً للحياة.

وبناء الإنسان لا يقتصر في نظر المصلح الجزائري، على النواحي الرّوحية العلميّة فحسب، بل يتعدّاه إلى بناء شخصيته وتكوينها تكويناً

(1) للتوسع يراجع:- فرانس فانون: «سوسيولوجية ثورة»، ترجمة: ذوقان قرقوط، ط1، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1970م.

متكاملاً في جوانبها المعرفيـة والخُلقية والذّوقية والاجتماعية والبدنية، ويؤكد ابن التبّاني أن وظيفة التربية تسـتهدف تقدّم الإنسـان في جسمه وعقله وسلوكه وأخلاقه.

• **منهجه في الإصلاح:**

لم يكن الشّيخ بن التبّاني رحمه الله ـ مجرّد عالم مدرّس فحسب، بل كان صاحب مـشروع إصلاحي، قائم على وعي كامل بالواقع، الذي يعيش فيـه هـو وأُمّته، فهو ما إن اسـتقرّ في الحجاز، حتى امتلـك زاداً كبيراً من العلـم الشرعي الأصيل، كما حاز من خـلال رحلاته الكثيرة وصداقاته المتنوعـة على ثقافة ووعي كبيرين بدوره في بعـث الحياة من جديد فيها، وبعـد رحلاته المفيـدة، التي زادته وعياً، وإيماناً بوجوب تنسـيق الجهود الإصلاحيـة، مع كلّ من يعمل في هذا المنحى بإخلاص حتى لا يذهب جهادهـم وجهودهم في مهبّ الريح، وعدوّ هـذه الأمّة أهدافه واحدة، وإنْ اختلفت صوره وأشكال مخططاته.

وأوّل محور بدأ العمل فيه هو إشاعة العلم بين أفراد المجتمع، الذي بـدأت تظهـر فيه آثار الجهـل والتخلّـف، التي تقضي بتجميـد التعليم المتنور، وتناقصت بشـكل رهيب بعد فترة قصـيرة، ممّا يُوحي بإحكام مخططـات العدوّ التـي لم تكن عشـوائية، كما يعتقد الكثير مـن النّاس، فأشـاع العلم بدروسه الحرّة عبر مسجد المدينة، وفي المدارس التي كان يدرّس فيها ثمّ بمدرسة الفلاح.

ودعا الشّيخ إلى العلم النافع دعوة قويّة صريحة، ولا فرق بين الديني منـه والدنيـوي الذي لا تسـتقيم الحياة إلاّ به، كما طلب من المدرّسـين

حسن اختيار المناهج، التي تؤتي ثمارها، وأن يجدّدوا فيها، فالمجتمع دائم الحركة، وما كان صالحاً منها بالأمس، قد لا يصلح اليوم. ولم يكن الشّيخ ممنّ تستهويه الخطب العصماء، واعتلاء المنابر في كلّ نادٍ دون أن يكون رائدًا وسبّاقًا إلى الامتثال إلى ما يدعو إليه أوّلاً، فهو كان ممارسًا للتدّريس ومؤلّفاً لمادة العلم الذي يدرّسه وفق المنهج الذي يراه مناسباً لمستوى التلاميذ وطلاّب العلم، فكَثُر الإقبال على دروسه وعَظُم الأخذ عنه وتنوّعت مؤلفاته في فنون العلم المختلفة فأثرى المكتبة بها، وصار بحق شيخ الحرمين ونسابتها كما كانوا يُلقّبونه وصار الأخذ عنه مدعاةً للفخر، والتطاول.

والمحور الثّاني الذي لا يقلّ خطورة عن الأول، هو محور العقيدة، التي لها انعكاساتها فى السلوك الاجتماعي، إيجاباً أو سلباً، لهذا أولاها اهتماماً خاصّاً، في دروسه المدرسية لغرسها في النّشئ صحيحة، كما أثّرت عن السّلف الصالح من هذه الأمّة، وألّف في ذلك براءة الأشعريين من عقائد المخالفين[1]، واعتقاد أهل الإيمان بنزول المسيح آخر الزمان[2]، تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل وتعليق الكوثري[3] وكان يردّ على الشّبهات التي كان يلقي بها المستشرقون

(1) محمد العربي بن التبّاني بن الحسين المغربي السطايفي، براءة الأشعريين من عقائد المخالفين، ج 1 – ج2، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011.

(2) محمد العربي بن التبّاني بن الحسين المغربي السطايفي، اعتقاد أهل الإيمان بنزول المسيح آخر الزمان،مطبعة بابا الحلبي، 1950.

(3) محمد العربي بن التبّاني بن الحسين المغربي السطايفي، تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل وتعليق الكوثري، ط2، القاهرة: مطبعة الأنوار، 1379 – 1959.

والملحدون والمنصّرون وأصحاب الأهواء من المسلمين.....في عقول طلاّب المدارس والجامعات.

وكان هو ومن معه من أساتذة في مدرسة الفلاح، بحكم تحكّمهم في علوم العصر، من علم الاجتماع والفلسفة والمنطق وإجادتهم لمختلف الفنون الأخرى، يقفون سداً منيعاً في وجه الأساتذة المستشرقين، الذين كانوا يبثون المغالطات في عقول الشّباب المسلم.

وأمّا العامّة فقد خصّهم في دروسه المسجدية، التي كان يعقدها في كثير من المساجد والمدارس والنّوادي سواء في الحجاز أو في الجزائر أو في الشّام وتونس أو أينما حلَّ وارتحل، لتعليمهم أمور دينهم، حيث كان يبدأ التّدريس من بعد صلاة الفجر وانفلاق نور الصّباح إلى ما بعد صلاة العشاء، ولا يقلّ طلابه كل حلقة من الدّروس عن أربعين طالباً، وبعض الحلقات الموجّهة للعامة يبلغ تعدادها أكثر من مائة نفس..[1]

وكان يولي العقيدة اهتماماً خاصّا، يُصحّحها في عقولهم، ويربطها بالمعين الصافي، كما فهمه سلف هذه الأمّة، ويحارب البدع التي ألصقت بالدين جهلاً وتشجيعاً، ممّن كانوا يبثّون في النّاس أنّ الاستعمار قضاء يجب التسليم به، فقعدوا عن الجهاد إلاّ قليلاً، فتمكّن العدوّ من تحقيق بعض أهدافه التي جاء من أجلها، ومما يجب التنبيه إليه أنّ الشّيخ لم يكن يصنّف الطرق الصّوفية في خانة واحدة، بل كان منصفاً ـ وهذا ديدنه ـ في حكمه عليها، فالطرق ليست سواء، فإنْ كان منها من

(1) للتوسع يُراجع: – محمد الطاهر الكردي المكّي، التّاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج، بيروت: دار خضر للطباعة والنشر، 2000، ص521.

استغلّ جهل المريدين والناس بأمور دينهم؛ لتمكين العدوّ الغاصب، وهذا من أجل عرض زائل، فإنّ البعض الآخر منها أقام زوايا كثيرة للعلم والتربية الرّوحية، وكانت بحق ملاذاً وقلاعاً للجهاد والمرابطة. كما لم يكن الشّيخ ضيّق الأفق، لا يفكر إلاّ في وطنه الصّغير، بل كان يعيش هموم كل الأمّة الإسلاميّة، التي تشابهت وإنّ اختلفت أقطارها.

7. تلاميذه:

لقد تتلمذ على يد الشّيخ أجيال من التلاميذ، وطلاب العلم الأحرار، فتخرّج كثير من العلماء والقضاة والمدرّسين، ورجال الفكر والشعراء والأدباء، ولا يكاد ينازعه هذا الشرف - خلال النصف الأول من القرن العشرين- إلاّ القليل من العلماء المدرّسين، فيُعدّ بحق أبا للنهضة العلميّة في الحجاز، وأهّله لأنّ يتبوأ مكانة مرموقة ويحقّ لنا أنْ نتساءل: هل كان له ارتباط بالنّهضة الإصلاحية والفكريّة والدينية في الجزائر والتي بدأت بوادرها مطلع القرن العشرين؟

والجواب لا يتأتّى إلاّ بالنظر في تاريخنا المجيد نظرة تبصّر وتحقيق، وحينئذ سنتأكدّ من أنّ رعيلاً من العلماء المجاهدين، وعلى رأسهم الشّيخ ابن التبّاني نذروا أنفسهم، وأوقاتهم وجهودهم من أجل أن لا يظفر أعداء العلم والإيمان والإنسانية جمعاء ببغيتهم، واستطاعوا أن يورّثوا القيم التي ورثوها عن أسلافهم لمن جاء بعدهم، ولا أكون مبالِغا إذا قلت إنّ كلّ من حمل قرطاساً وقلمًا ببلاد الجزيرة من الجزائريين إلاّ وللشّيخ ابن التبّاني؛ قيد من الإحسان يُطوق رقبته. كما أن الشّيخ

لم ينس دعم النهضة الإصلاحية والفكريّة والدينية في الجزائر بكتبه ورسائله العديدة، حيث تعج رسائله العائلية إلى الجزائر بما ملخّصه توزيع العدد الأكبر من النسخ على بعض أعلام الإصلاح في الجزائر، وحتى لبعض الموظفين في الإدارة الفرنسية كالقياد والمدرسين، فقد ورد في إحدى رسائله «1 محرم 1368هـ- 13 نوفمبر 1948م» إلى خاله الشّيخ السعيد أنّه قد أرسل إليه كتاباً وهدية مع ابن عمه السّيد الحاج المدني بن الشّيخ تضمّنت كتاب «شرح الصّدور بأحوال الموتى والقبور» للحافظ السيوطي، وثلاث نسخ من تأليفه الجديد الذي طبعه في مطبعة الحلبي: «وتأليفي الجديد الذي ستسرّون به وهو مقدار ثلاثمائة نسخة تقريباً، أعكِفُ على إرسال خمس وثلاثين نسخة منه، وقد وزّعت ستة عشرة نسخة للقطر الجزائري، وخمسة نسخ منها مع ابن خروف للبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعربي التبسي، وأبي يعلى الزواوي إمام جامع سيدي رمضان بالعاصمة، والخامسة لابنه الأحمدي، ونسخة سادسة للعاصمة أي إلى مفتي الحنفيّة بالجزائر، وسابعة لابن سيدي عكة جاءني زائراً بالبيت، والثامنة لابن خبابة مفتي سطيف.....».

وتلاميذه هم الذين قرأوا عليه أو حضروا دروسه وهم لا يُحصون كثرةً من بلاد العالم الإسلامي، ومن الذين تخرجوا من مدرسة الفلاح وقد أجاز الشّيخ طلابه الذين تخرجوا على يديه أو واضبوا على درسه ورأى فيهم نباهة طلاّب العلم، فأجازهم جميعاً بإجازته عن شيوخه بالمعقول والمنقول، وأوصاهم بالتزام المذاهب الأربعة، مع مواصلة

العلـم والتحصيـل والدعـاء له في ظهر الغيـب، ومن قرأ على الشّـيخ أحبّه، ومن سـأله مرةً يصادقه، ومن دخـل داره يعلم تواضعه وفرحه بضيـف الله، ومن سـمع كلامه علِـم إنصافه ومن نظر إليـه رأى نوره وهيبته، وصدق فيه قول الشاعر:

ترى الحمد يهوى إلى بيته يرى أفضل الكسبِ أن يُحمدا

والتتلمذ عند الشّيخ أخذ شكلين هما:

أ. التتلمـذ الحـرّ أو السـماعي المجـاز: لا يمكن بحال مـن الأحوال الوقـوف عـلى كلّ مـن أخذ عن الشّـيخ سـماعاً وأجـازه؛ لأنّ مصادر الترجمـة لم تسـعفنا بذكرهـم جميعـاً، وإنْ ذكروا فلأنّهم صـاروا أعلاما مشـهورين، تقلّـدوا مناصـب الفتـوى، والتدريس والقضـاء، ومنابر الصحافة، ونجد منهم ثلاثة:

ب. التتلمـذ النظامـي: وطـوال مـدّة تدريسـه (1919 – 1969) والتي فاقت **الخمسـين سـنة** نجد أن الشّيخ ابن التبّاني قد انتفع به خَلْق كثـير، وتخـرَّج به الجـم الغفير، فتجـد تلاميـذه وتلاميذهم يدرسـون بالحرم الشريف، كما اسـتفاد النّاس منـه، وتخرّج به عدد من أصحاب الفضيلـة. بحيـث تخرَّج عـلى يديه أغلـب علماء الحرمـين الشريفين في العـصر الحديث، وهـم الذين أصبحوا فيما بعد علـماء يلقون الدّروس في الحـرم الشريـف وازدهـرت بهم جنبـات الحرم وأصبحـت حلقاته العلميّـة نـورًا يـضيء أروقة الحـرم مثل فضيلـة الدكتـور محمد علوي مالكـي والعلامـة الفاضل الشّـيخ محمد نور سـيف بن هـلال والعالم

الصالـح محمد أمين كتبي ومن تلاميذه أيضاً الشّـيخ عبد الله اللحجي (وهـو مـن الذين لازموه في آخـر حياته)، والعلامة علـوي بن عباس المالكي والشّـيخ عبد الله دردوم، والشّـيخ محمد أمين ميرداد والشّـيخ إسـماعيل الزين، والشّـيخ أحمد جابر جبران، وغيرهم كثير رحمهم الله تعـالى أجمعين، وعلى يديه تخرّج أيضاً تلاميذ أفذاذ انتشروا في المشـارق والمغـارب وإفريقيـا والسـودان ومـصر وغيرها من البلاد الإسـلامية كالسّـيد يوسـف عبـد الرزاق، الشّـيخ العلاّمـة عبد الفتـاح أبو غدة، الشّـيخ حسـن بن محمد سفر، الشّـيخ حسن مشـاط، والشّيخ وصفي المسـدي الحمصي، والشّـيخ عبد الفتاح بن حسين بن محمد طيب راوه المكي.....الخ.

8. منهجه التربوي والإصلاحي في الـتأليف:

للشـيخ العـربي التبّـاني رأي في التّأليـف حيث جاء في حاشـية كتابه (محادثـة أهل الأدب بأخبار وأنسـاب جاهلية العـرب)[1]: «لا أميل إلى التّأليف كثيرًا عملاً بنظرية القائل ما ترك الأول للآخر شيئًا، وكادت هذه النظريـة أن تكون صحيحة منطقية عندي على العلوم العربية والشرعية بجميـع فنونهـا، فمنذ قـرون متعـدّدة انقطـع المسـتنبطون والمجدّدون والمستخرجون للنكت البديعة في هذه الفنون وصار المؤلّف الحاذق هو الذي يسـتطيع أن يلخّص كلام السّـابقين من المصنفين ويخرجه للناس في أسـلوب حسـن، وهـذه الطائفة الحاذقـة في التلخيـص والتمحيص

(1) محمـد العـربي بـن التبّـاني بن الحسـين، محادثـة أهـل الأدب بأخبار وأنسـاب جاهلية العرب، مطبعة حجازي، القاهرة، 1951. ص3.

يمكن أن يقال إنهم بقوا بكثرة وافرة إلى آخر المائة العاشرة وبعدها صار المؤلّفون يعمدون إلى الكتب المبسوطة السلسة العبارة، السهلة الفهم فيعتقدونها مبالغة منهم في الاختصار، قالوا وربما ألّف في فن من الفنون من لا يحسنه، ومن أصح علم من تقدما».

وهذه المؤلَّفات أمامنا شاهد عيان نرى الكتاب الواحد من كتب الفقه أو النّحو أو الصرف مثلا شُرح عدّة شروح وكلّ شرح من هذه الشروح له حواش كثيرة وكلّ شارح ومحش ينقل ما قاله سلفه بالحرف أو يلخصه، والحاذق منهم من يتعقّب سابقه بتجديد مناقشة معه في عبارة أو إبداء اعتراضات أو احتمالات، يصعب على طالب العلم في زماننا هذا تحصيل ذلك الفن بسرعة مع ما يحيطه من الكوارث وأشدّها الفقر.

وأستغفر الله تعالى أن أقول هذا هضماً لحقوق العلماء الشارحين والمحشين فإنهم عندي بالمكان الأعلى من التوقير والاحترام، وما من شرح وحاشية إلا وفيه فوائد ولكن أقول هذه الكثرة لم تنتج شيئا يقارب علم الأقدمين فضلا عن مساواته، بل أظهرت فضل المتقدّمين وبراعتهم في هذه الفنون، هذا مع كون المتأخّرين وصلت إليهم ثروة عظيمة من تصانيف المتقدّمين وهيّأتها لهم المطابع بثمن بخس ومع هذا كلّه قلّ العلم ورحم الله تعالى العلاَّمة الناظم الناثر أبا الحجاج البلوي الأندلسي أحد أعيان المائة السادسة ومؤلف (كتاب ألّف باءالنفيس) إذ يقول مع غزارة علمه: «خذ من هنا وضع ههنا وقُل مؤلفه أنا».

وهذا الشّيخ داود الأنطاكي الضّرير صاحب (التذكرة في الطبّ) انتقد علماء مصر في زمانه لعدم تعلّمهم الطبّ مع شهادته لهم

بالبراعة في العلوم المذكورة قال: «الواحد منهم إذا مرض يحتاج في معالجته إلى طبيب يهوديّ أو نصراني». وقد كنت سمعت من شيخي حمدان الونيسي رحمه الله تعالى يقول: «التّأليف في هذا الزّمان ليس بمفخرة»، وكان رحمه الله يقول: «من كان عنده علم في هذا الزّمان فليعلِّم النّاس وينشلهم من الجهل، هذا وإني مع قلّة بضاعتي في هذه العلوم التي قلت بحثا ونقلا ولم يبق فيها مقال لقائل، أدرجت نفسي في عداد المؤلّفين فيها فلي عدّة رسائل منها: (تاريخ العرب قبل الإسلام) ملخّصا فيه أنسابهم، و(حلبة الميدان ونزهة الفتيان في تراجم الفتاك والشجعان)، و(إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسّنة من فضائل الصحابة)، و(براءة الأبرار ونصيحة الأخيار من خطل الأغمار)، ورسائل أخرى ليس لي فيها سوى نقل أقوال العلماء وآرائهم، أما الكتابة فلست فيها بالبارع وغاية أمري فيها إفهام النّاس مرادي ورد جوابهم بقدر المستطاع، والنَّظم لا حظَّ لي فيه وقريحتي فيه كليلة أستطيع فى بعض الأحيان نظم البيتين أو القطعة عند صفاء الفكر».

وللشّيخ مصنّفات كثيرة نافعة ومفيدة رغم رأيه المذكور في التصنيف حيث كتب غالبًا من أجل تصحيح بعض الأخطاء والردّ على المخالفين:

• إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسّنة من فضائل الصحابة[1]، علَّق عليه الأستاذ رضا غمور. (وفيه ذكر سيرته بخط يده)

(1) السعودية، مطبعة الشرق، 1368هـ - 1949م.

• تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل وتعليقات الكوثر[1].

• تحذير العبقري من محاضرات الخضري أو إفادة الأخيار ببراءة الأبرار[2] (جزآن):.أو النصيحة والاستدراكات على كتاب المحاضرات للخضري أو تحذير العبقري من محاضرات الخضري

• براءة الأشعريِّين من عقائد المخالفين[3]. (جزآن):. وصدر باسم أبي حامد مرزوق.

• اعتقاد أهل الإيمان بنزول المسيح ابن مريم عليه وعلى نبينا السلام آخر الزمان[4].

• محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب. (جزء واحد): المكتبة المكية، السعودية، 2002م[5].

• خلاصة الكلام فيما هو المراد بالمسجد الحرام[6].

• إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات[7].

• التعقيب المفيد من هدي الزَّرعي الشديد.

---

(1) القاهرة: مطبعة الأنوار، ط02، 1379هـ - 1959م.

(2) بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: 1984م.

(3) دمشق، مطبعة العلم، 1967م.

(4) مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، 1369هـ - 1950م.

(5) القاهرة: مطبعة حجازي، 1370هـ - 1951.

(6) مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، 1369هـ - 1950م.

(7) طبعة خاصّة على نفقة الشّيخ إسماعيل جمال الحريري، ط06، 1414ه

• حلبة الميدان ونزهة الفتيان في تراجم الفتاك والشجعان.

• النقد المحكم الموزون على كتاب الحديث والمحدّثون، وصدر أيضاً باسم أبي حامد مرزوق.

والكتب المذكورة كلّها طبعت أكثر من طبعة واحدة، ومما لم يطبع له في حدود ما نعلم:

• براءة الأبرار ونصيحة الأخيار من خطل الأغمار.

• مختصر تاريخ دولة بني عثمان.

• إدراك الغاية من تعقب ابن كثير في البداية.

• تاريخ العرب قبل الإسلام. وقد ذكره الشّيخ يوسف إسحاق حمد النيل في تقريظه لكتاب النصيحة والاستدراكات[1].

لقد كان المترجم ذا فهم ثاقب، وذكاء مفرط، ومن التواضع ودماثة الخلق على جانب عظيم، وكان يشفق كثيرا على المؤمنين، ويحب الصّوفية والفقراء، عليه هيبة ووقار، حسن التقرير في درسه مع التوسّع في الشّرح والبيان، عامر الوقت بالذكر والمذاكرة، داعيا إلى الله بحاله وقاله، شديدًا على أهل العناد وأدعياء العلم، غير مكترث بأذاهم.

والناظر يرى أن الشّيخ محمد العربي صاحب رأي جيّد النظر، قوي التصرّف والإدراك مع الأدب الجمّ، فهو لا يغلق الباب، ولكنه يُقيِّم أعمال المتأخّرين بالنّسبة للمتقدّمين، ولكن قول القائل: ما ترك الأول

(1) محمد العربي بن التبّاني، النصيحة والاستدراكات على كتاب المحاضرات للخضري، القاهرة: مطبعة الشرق، 1358هـ، ص77.

للآخر شيئًا عليها ما عليها. ولله در ابن مالك حيث يقول: «وإذا كانت العلوم منحًا إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدّخر لبعض المتأخّرين ما عسر فهمه على كثير من المتقدمين». وهذا مُشاهد ملموس، ففي المتأخّرين أفذاذ فاقوا بعض السّابقين، وضَرْبُ الأمثال مما يطول المقام. أما قول أبي الحجاج البلوى الأندلسي: «خذ من ها هنا إلى..... إلخ»، فهذا يصدق على البعض لا الكل والله أعلم.

9. **وفـــــــاته:**

وبعد حياة حافلة بالخير ومسيرة إسلامية طيبة درّس خلالها تحت أروقة الحرم المكّي تشعّ أنواره في أرجاء الحرم معلّماً لمبادئ الدين الإسلامي واستمر على حاله إلى أن أصيب بالفالج[1]. «شلل اعتراه بلسانه وشقه الأيمن» ثمّ انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الخميس الثّاني والعشرون من شهر صفر الخير عام 1390هـ/ أبريل 1970م بمكّة المكرّمة، غير أن ما جاء في مراسلة السّيد صهره أحمد علي تنكر إلى خال محمد العربي السّيد السعيد بن العيساوي المؤرخة في 24 ربيع الأول 1290هـ الموافق لـ 29 ماي 1970، تُبيّنُ أن وفاته كانت يوم الخميس 22 ربيع الأول 1390هـ، وهذا الخطأ وقع فيه أغلب من ترجم للشّيخ

(1) ويقول في ذلك زكريا بيلا كنت أرى فضيلة الشّيخ محمد العربي يدرّس بالمسجد الحرام وقرأت عليه نبذة يسيرة من كتاب الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي وقبيل وفاته بأيام كنت صليت المغرب بالمسجد الحرام فرأيته عند باب العمرة على كرسي يدرّس وحوله الطلاب وحمدت الله على عافيته وفي يوم الخميس 22 / 03 / 1390هـ بلغني انتقاله إلى رحمة الله وبعد صلاة العصر صلى عليه بالحرم وشيعت جنازته إلى مثواه الأخير رحمه الله وأسكنه فسيح جناته أمين. الجواهر الحسان، ج، ص 271.

وذكر تاريخ وفاته. والتّاريخ الأخير تؤكدّه مراسلة الدكتور حامد محمد هرساني وهو طبيب وجراح بمكّة المكرّمة كان مسؤولاً عن علاج الشّيخ، في رسالة أرسلها إلى الشّيخ السعيد بن العيساوي مؤرخة في 30 ربيع الأول 1390 هـ الموافق لـ4 أبريل 1970 م.

وصُلّي عليه بالمسجد الحرام ودفن بمقابر المعلاه[1] في شعبة النّور بجوار قبر السّيدة أسماء الصديقية «ذات النطاقين»، وذكر الشّيخ عبد الواحد مصطفى أنّه بعد دفنه بالمعلاه كشف عن قبره عدّة مرات في سنوات متعددة، فإذا جسده الشريف كما هو، ورائحته زكية، فسبحان الله المنان[2].

واشترك في تشييعه عدد كبير من العلماء وأهل العلم ومحبيه وتلاميذه وعارفي فضله، فقد جاءت مراسلة من السّيد عبد القادر بن أحمد الجزائري إلى الشّيخ السعيد بن العيساوي مؤرخة في 27 ربيع الأول 1390 هـ: «وقد كان يوم تشييع جثمانه أعظم يوم شهدته مكة المكرمة، فلم يبق عالم ولا طالب علم ولا موظّف ولا صاحب متجر ولا حانوت ... ولا عظماء ولا الشّخصيات إلا وأسرع في الاشتراك في تشييع جنازته، حتى غصّت وامتلأت الشّوارع والطرقات فكأن الذي مات ملك من الملوك..».

وهكذا ودَّع أهل مكة عالماً من علمائها الأجلاء الأفاضل الأفذاذ وصالحاً من الصّالحين، حيث فقدت مكة بوفاته رجلاً من الأعيان والأعلام، وقطبا من أقطاب المعرفة ولفراقه عمَّ حزن كبير أرجاء مكة

---

(1) **المعلاه**: هي القسم العلوي من مكة المكرمة، وغالبا ما يطلق على مقبرة مكة التي صارت تعرف بالمعلاة؛ لوقوعها في هذا الحي (معجم معالم الحجاز 8 / 201). فيض الملك الوهاب: ص119.

(2) عبد الواحد مصطفى، براءة الأشعريين من عقائد المخالفين وكتب أخرى، دمشق: دار المصطفى، 2007، ص(ف).

المكرمة، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وجزاه الله عن العلم والعلماء خير الجزاء؛ نظير ما قدَّم من علم وعمل وجعل الجنة مثواه. لم يرزق الشّيخ العربي التَّباني خِلفة، بل ترك في كفالته طفلة يتيمة.

10. مناقبه وشهادات تلاميذه والمعاصرين له:

يعتبر العلاّمة محمد العربي التبّاني صاحب مدرسة فكرية غذّاها بعلمه ورعاها وشملها باهتماماته فقد سطعت عليه بركات وأنوار البيت العتيق والروضة والقبر الشريف فكانت حياته كلّها علما وتعلّما. لقد تمتّع الشّيح بحسن الصّيت، وبإعجاب واحترام وتقدير كثير من العلماء والمصلحين ورجال الأدب، فبالإضافة إلى تقريظ كثير منهم لكتبه، لم يستطيعوا حبس تقديرهم له ولجهاده الطويل، فتركوا هذه الكلمات الخالدة شهادةً له بعد أنْ مضى إلى ربه، كما مضوا هم بعده إلى ربّهم، غير أنّ ذكرهم الحسن، وسيرتهم العطرة لا تزال تُدرس وتُتَدارس إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله.

كان رحمه الله على الرّغم من الهيبة التي منحه الله إياها إلا أنّه كان متواضعاً يحب الصّالحين والعلماء وينزل النّاس منازلهم ويكرم الطلبة ويبذل لهم المساعدة وكان يستخدم جاهه ووجاهته مع التواضع في خدمته للجزائريين القاصدين بيت الله الحرام، وكان لا يذكر أحدًا بسوء ويثني على العلماء، وأوقاته كلّها أدعية وصلوات وشيء من قيام الليل خصوصًا في رمضان، كان يقضي يومه كلّه في الاشتغال في التّدريس ويقضي حوائج النّاس في شؤون دينهم ودنياهم، قضى

خمسين عاماً في أروقة المسجد الحرام ومدرسة الفلاح ينشر العلم مثابرًا على ذلك في التّدريس ونشر العلم[1].

قال عنه تلميذه محمد نور سيف: «شيخنا وقدوتنا ومربينا الجهبذ الكبير العلاّمة الخطير والحبر الشّهير والهامة النحرير الجامع لشتات العلوم فروعا وأصولا منقولا ومعقولا صاحب الفضيلة والأيادي الجليلة والمناقب الجميلة مولانا الحسيب النّسيب الشّيخ محمد العربي أن جعله من أولئك الأفذاذ الذين يحفظ بهم كيان دينه المبين، وكرامة حملته المتلقّين له عن سيّد الأنام الصادق الأمين الذين عزّ شبيههم فيمن تقدّم من أصحاب المرسلين ولا نظير لهم في سلف من النقباء والحواريين. وقال عنه محمد بن عبد الله آل رشيد: «العلاَّمة المحقِّق المؤّرخ الفقيه الشّيخ العربي بن التَّباني بن الحسين السَّطيفي، ثمّ المكّي المالكي»[2].

ويقول السّيد يوسف عبد الرزاق من علماء الأزهر الشريف والمدرس بكليّة أصول الدين: «من محاسن مكّة المكرمّة زادها الله تشريفا وتعظيما وتكريما ومكة محاسنها جمة وفضائلها كثيرة أن زيّن الله حرمها المبارك بالعلماء الذين هم مصداق الخبر المأثور: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وإنّ من ألمع علمائها الأعلام الذين طلعوا في سمائها بدورًا وفاضوا في أرجائها بحورًا ورفعوا راية العلم عالية خفّاقة شيخنا العلاّمة الفقيه الأصولي المحدّث المفسّر اللّغوي المؤرخ الثّقة أبا عبد الله السّيد محمد العربي بن السّيد التبّاني أطال الله بقاءه في

(1) من أعلام علماء المسجد الحرام، السيرة الذّاتية لمحمد العربي التبّاني بقلمه (ص: 7).

(2) **إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشّيخ عبد الفتاح** (ص: 377).

خير وعافية فإنه حفظه الله غرة في جبين هذا العصر ودرة يتيمة في تاج الفخر».

فلقد أقبل بهمته العالية وعزيمته الصادقة على نشر العلوم المعقول منها والمنقول في أوّل بيت وضع للناس، حتى تخرج عليه نخبة كريمة ممتازة من أفاضل العلماء تتزين بهم المجالس وتتبختر بفضائلهم المعاهد والمدارس.

ولقد مَنَّ الله عليَّ ولله الفضل والمِنّة أن يسر لي حضور بعض دروسه في الحرم المكّي المبارك فألفيته بحرًا زخارًا تتفجر ينابيع العلوم من شفتيه الطاهرتين فذكرني ذلك بقول الشاعر:

كانت محادثة الرّكبان تخبرنا * عن جعفر بن فلاح أحسن الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت * أذنى بأحسن مما قد رأى بصري

لازالت مجالس العلوم بهمته معمورة وأحاديث فضائله في الخافقين مأثورة[1]. قال فيه العلّامة محمد أمين كتبي أحد تلاميذه هذه الأبيات:

حياته كلّها نفع وفائدة * ما اعتاض عن جلسة في العلم باللعب

وتلك آثاره الغراء شاهدة * بأنه في المعالي في ذري الرتب

لا شيء أعجب من ألفاظه * فإذا ما أنهل في الدّرس كان الدّرس من ضرب

يفيض كالبحر في الأصلين متدفقا * وفي التواريخ والآلات كالسحب

وذلك حقل العلم أكثره * من غرسه نال منه منتهى الإرب[2]

(1) تحذير العبقري: ص،29.

(2) من أعلام علماء المسجد الحرام: ص،20.

ويقول في مدح شيخه ابن التبّاني أيضاً:

من كان يعتزّ في علم وفي أدب * بشيخه فأنا أعتز (بالعربي)
شيخ تمكّن فيه الفضل فانبثقت * أنواره فحكت سيّارة الشهب

وقال عنه فضيلة السّيد إسحاق عزوز عضو مجلس الشورى ومدير مدرسة الفلاح بمكّة المكرّمة: «شيخنا العلاّمة الشّيخ محمد العربي التبّاني الجزائري ثمّ المكّي جمع الله له طرافة الحديث وغزارة العلم وسعة المعارف والجمع بين الرّواية والفهم، أصوليّ مفسّر محدّث له قدم أعلى في التّاريخ العربي والإسلامي قد شغل أوقاته منذ نشأته بمذاكرة العلم وتدريسه والتّأليف فيه»[1].

الخاتمـــــــــة:

قال الشاعر الأندلسي:

أخو العلم حي خالد بعد موته * وأوصاله تحت التراب رميم
وذوالجهل مَيْتٌ وهوماش على الثّرى * يُظَنُّ من الأحياء وهو عديم

ستظل في الأذهان صور هذا النموذج الفريد من علماء الحرمين الشريفين الذي وافاه الأجل المحتوم في الثّاني والعشرين ربيع الأول عام (1390هـ) بعد أن قضى ما يقارب الخمس والسبعون سنة في جنبات الحرم والمسجد النّبوي الشريف وأروقتها ينشر العلم ويروي العطشى من بحره المتدفّق وعلمه الغزير.

(1) تحذير العبقري، ص 9.

فرحم الله هذا الرّجل المبارك من الأولين وجزاهم عن العلم وأهله أفضل ما جزي عباده العاملين، مات رحمه الله ودفن بمكّة المكرّمة ولم يخلف ذكورا ولا إناثا، وزوجته الثانية (مصباح تُنكر) شفاها الله لا زالت على قيد الحياة وهي الآن مقيمة بجدة، فاللهم أغدق رحماتك عليه وعلى أموات المسلمين ووالدينا وجميع المسلمين، وصلّ اللهم على البشير النذير والسّراج المنير وعلى آله وأصحابه أجمعين، وهدانا إلى الصراط المستقيم.

هذا ولا أدعي أني أتيت على سيرة الشّيخ رحمه الله، وإنّما قصدت توضيح بعض معالم سيرته التي تحتاج إلى نفس أرقّ، وفقه أدقّ وذكاء أكبر، وإيمان أعمق، كما أنني لا أدعي لعملي هذا العصمة أو الكمال، فهذا شأن الرسل والأنبياء، ومن ظن أنّه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[1] فالعلم بحر لا شاطئ له وما أصدق الشاعر إذ يقول:

وقل لمن يدّعي في العلم فلسفة * حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

يقول الثعالبي: لا يكتب أحد كتابا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة، فكيف في سنين معدودة؟ وقال العماد الأصبهاني: إني رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده، لو غير هذا لكان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يستحسن، ولو قدَّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا

(1) سورة الإسراء، الآية 85.

مـن أعظم العبر، وهو دليل على اسـتيلاء النقص على جملة البشـر.
قال الشـاعر:

أسـير خلـف ركاب القـوم ذا عرج ❊ مؤمـلاً جـبر مـا لاقيـت مـن عوج
فـإن لحقـت بهم مـن بعد ما سـبقوا ❊ فكم لرب السّـماء في النّاس من فرجِ
وإن ظللـت بقفـر الأرض منقطعا ❊ فـما عـلى أعـرج في ذاك مـن حـرج

دراسة تحليلية في تراث الشّيخ محمد العربي التبّاني

د. مريم عطية
المركز الجامعي سوق اهراس

المقدمة:

تأسّى التبّاني بمن سلف من العلماء الذين ترجموا لأنفسهم حيث ذكر أنّه ينتهي إلى علي بن عبد الواحد ويتصل نسبه بعبد السّلام بن مشيش[1] الذي يتّصل بإدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن بن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب مؤسّس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، وذكر أنّه ولد بقرية راس الوادي من ناحية مدينة سطيف حيث حفظ القرآن وعمره لا يتجاوز اثنتا عشرة سنة وتلقى مبادئ العقائد والفقه والنّحو على مشايخ المنطقة وأبرزهم عبد الله بن القاضي اليعلاوي وفي ترجمته[2] (عرج الشّيخ على زملائه إلى كل من تونس والمدينة المنوّرة وكذلك إلى الشّام فأم القرى

(1) عبد السلام بن مشيش الإدريسي الحسيني، ناسك مغربي اشتهر برسالة له تدعى الصّلاة المشيشية، شرحها كثيرون وأحد شروحها مطبوع، ولد في جبل العلم بثغر تطوان، وقتل فيه شهيدا، ولأبي محمد عبد الله الوراق رسالة في مناقب ابن مشيش في خزانة الرباط، الزركلي، الأعلام، ج4، ص 9.

(2) ينظر ترجمته في كتابه اتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسّنة من فضائل الصحابة، مراجعة محمد عبد الله ناصر الموزعي، السعودية، المكتبة المكية، 1422هـ، 2002م، ص 8. أما عن شيوخه الذين حصّل عليهم مختلف العلوم نجدهم مسندين في إجازته لسليمان الصنيع ولقد حصلت على نسخة منها خطي التبّاني بيده سنة 1365هـ ونسختها الأصلية موجودة بجامعة الملك سعود.

التي استقر بها مدّرسا في مدرسة الفلاح ابتداء من سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف حيث درّس فنون عديدة أهمها: التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض، السّيرة النبوية، التجويد، النحو، الصرف، البيان والتّاريخ وقد ذكر التبّاني في ترجمته ما ختمه من الكتب ومدى استفادته من الأقران، والحقيقة أن ذلك الزخم يدل على موسوعية الرّجل وطول باعه وكثرة اطلاعه وحسن اختياره للمنقول والمعقول .

وفي ترجمته المذكورة لم يغفل التبّاني عن ذكر مجموع ما ألّفه وكتبه إلاّ أنّه قبل أن يذكر ذلك أبدى موقفا واضحا من التّأليف نبرزه ليتضح مقصوده.

1 – موقف التبّاني من التأليف

يقول التباني: «لا رغبة لي في التّأليف ما لم يكن لإحقاق حقّ وإبطال باطل أو دفاع عن الإسلام ورجاله العدول، عملا بقول القائل ما ترك الأول للآخر شيئا، وهذا الكلام صحيح منطبق على العلوم الشّرعية بجميع فنونها، فمنذ قرون انقطع المستنبطون والمستخرجون للنّكات البديعة من هذه الفنون، وصار المؤلّف الحاذق من يستطيع أن يلخّص كلام السّابقين ويخرجه للناس في أسلوب موجز، وقالوا ربما ألّف في فن من الفنون من لا يحسنه فما أصحّ علم من تقدّم، هذا مع كون المتأخّرين وصلت إليهم ثروة عظيمة من تصانيف المتقدّمين ... ومع هذا كلّه قلّ العلم وازدادت الدّعاوي فيه كثرةً»[1]

يبدو نهج التبّاني في مؤلفاته واضحا، إذ أنه يعتمد على أسلوب

(1) التبّاني، اتحاف ذوي النجابة، مصدر سابق، ص 12 .

حجاجي مطرّز بقوة الاستنباط العقلي والمنطقي والدّلالي والذي بفضله استطاع لجم أفواه الشانئين لمذهب الوسطية السّمحة في الاسلام دون غلوّ أو تساهل وهو ما عبر عنه بقوله صراحة :«إحقاق حقّ وإبطال باطل، أو دفاع عن الإسلام ورجاله العدول ...» فأغلب مؤلفاته جاءت ردا على الشّيعة الرّوافض الذين يتبرؤون من الصّحابة وينكرون فضائلهم ويتجلى ذلك في كتابه «إتحاف ذوي النجابة»، وكذلك الوهابية السلفية الذين كفّروا الأئمّة الأعلام من الأشاعرة ويظهر ذلك في مؤلّفه براءة الأشعريين من عقائد المخالفين والبعض الآخر جاء ردودا على أشخاص معينين، ضلّوا وأخطأوا المنهج وأخطاوا الاستدلال كالخضري والكوثري، ويتجلّى ذلك في مؤلفاته الآتية: «تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري»، و«تحذير العبقري من محاضرات الخضري» أما الردود فكانت مسائل فقهية وعقدية وضّح فيها سبب الاختلاف بين العلماء وأبرز الراجح منها دون غلو أو تعصّب وتبرز هذه الردود في مؤلفاته الآتية: **رسائله الثلاث المتضمنة:**

- إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة على الأموات.
- اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن، بنزول المسيح ابن مريم آخر الزّمان
- خلاصة الكلام فيما هو المراد بالمسجد الحرام.

ولقد أضاف محقّق الكتاب إلى جملة ما ذكره الشّيخ الآتي :

- التعقيب المفيد من هدي الزّرعي الشديد، تعقّبة ابن القيّم في بعض المسائل التي ذكرها في كتابه زاد المعاد من هدي خير العباد.

- حلبة الميدان ونزهة الفتيان في تراجم الفتيان والشجعان
- مختصر تاريخ دولة بني عثمان
- إدراك الغاية من تعقب ابن كثير في البداية

- ولقد حصلت على تعليقات التبّاني على كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول ﷺ وعلى آله وصحبته للقاضي حشلاف قاضي الجلفة المتوفَّي سنة 1937م وسأتناول هذا التراث كتابا كتابا أبرز فيه دوافع التبّاني لكتابته

أولا: كتاب إتحاف ذوي النّجابة بما في القرآن والسّنة من فضائل الصّحابة

قدّم لهذا الكتاب محمد امين كتبي أحد كبار تلامذة الشّيخ التبّاني وهو كتاب ينوه بفضل الصّحابة الفخام[1] ويبين حالهم التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام، وما بذلوه من المهج والأموال وقد ذكر التبّاني في هذا الكتاب القيّم سبع عشرة آية كلّها تتكلّم في فضائلهم منها ما يخصهم، ومنها ما يعم الأمّة فيدخلون بذلك دخولا أوليا وقد بسط الشّيخ التبّاني القول في تفسير تلك الآيات واستنبط منها الكثير من الأحكام كصحّة خلافة الخلفاء الأربعة، وعدم إسلام المبغضين للصحابة وكذلك بيّن الكثير من المعجزات والأخبار المغيبات ونثر في كتابه عددا كبيرا من الأحاديث كلّها تنوّه بمقدارهم وشرف صحبتهم وخدمتهم للرسول الكريم ﷺ وعلى آله وصحبته وكذا مشاهدة معجزاته وشهود نزول الوحي عليه والاقتداء

(1) ينظر مقدمة أمين كتبي على كتاب إتحاف ذوي النجابة، مصدر سابق، ص 18، 19

بشمائله الكريمة وتفديتهم له بكل رخيص وغال، ولم يكتف التبّاني بهذا القدر ليبين فضلهم بل راح يبطل أقوال المنتقصين منهم كالرّوافض والشيعة والمعتزلة والخوارج بأسلوب مشرق يدحض حججهم، ويهتك أدلّتهم الزائفة ولقد أنشد أمين الكتبي يمدح شيخه وكتابه قائلا:

من كان يعتز في علم وفي أدب بشيخه فأنا اعتز بالعربي
شيخ تمكّن فيه الفضل فانبثقت أنواره فحكت سيارة الشهب
فانظر إلى سفره هذا تجد عجبا عقد يؤلف بين الدر والذهب
أراد نصرة أصحاب الرسول به فجاء سيفا عليه طابع الكتب

1 - الباعث على إنجاز الرسالة وترتيبها

يقول التبّاني :«فقد عنّ لي منذ سنين خلت لمّا كتبت نبذة يسيرة على محاضرات الخضري في نقده الصّحابة وبعض الخلفاء الراشدين أن أكتب رسالة تتضمن فضائل الصّحابة في القرآن والسّنة »[1] وقد كان هدفه واضحا من ذكر فضائل الصّحابة ومِنَ التنويه بشمائلهم وأقدارهم وتنبيه أبناء المسلمين إلى عظمتهم وتاريخهم المجيد، ويضيف التبّاني في موضع آخر أنّه وقف على مقالة لكاتب إيراني يدعى حيدر علي[2] وما

(1) لقد ألف علماء كثر قبل التبّاني حول فضائل الصّحابة وعدالتهم فهذا الذهبي له كتاب بعنوان مفهوم عدالة الصحابية، معرفة الصّحابة لأبي نعيم الأصبهاني، الأمالي في آثار الصّحابة للصنعاني، فضائل الصّحابة لأحمد بن حنبل، فضائل الصّحابة للدارقطني صنف الامام عبد الله بن الامام احمد في فضائل عثمان، فضائل الصّحابة للنسائي، حياة الصّحابة للكاندهلوي . ولكن تميز التبّاني عن غيره في أسلوبه ومنهجه العقلي في نقد أقوال الروافض.

(2) هذه المقالة منشورة في مجلة تسمى نور دانش عدد 26 كتبها بمناسبة ميلاد أمير

أورده من عَلو وتناقض وافتراء عليهم، ويذكر التبّاني أنّ ما كتبه الإيراني لا يستحق الردّ والتفنيد لولا أنّه طلب منه ذلك فكان قصده الأول ما ذكرت أولا ونقض ما افتراه الرافضي ثانيا .

2 – نقد التبّاني لمقالة الرافضي الإيراني

قال حيدر علي في المجلة المذكورة: «هذا صحيح بأنّ نعتقد أنّ الدّين الإسلامي أكمل الشرائع وخاتم الأديان، فلهذا السّبب لا بد له أن يكون موجودا إلى يوم القيامة. قال التبّاني: ولكن ما سبب بقائه، راجعوا التاريخ بدقة تجدوا يوم كانت جنازة النّبي ﷺ الخالية من الروح مرمية على حجر، وعدد قليل بمعيّة ابن أبي طالب كانوا مشغولين في غسله وتكفينه كم كانت نفوس المسلمين يومئذ الموجودين على وجه الأرض، ثمّ بعد ما انتشر خبر موت النّبي صلى الله عليه وسلم في كلّ الجزيرة بثلاثة أيام كم بقي منهم على الإسلام»[1].

ثانيا: مجموع الرسائل الثلاث

1 – الرسالة الأولى: اسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات

أراد التبّاني في هذه الرسالة أن يرد على من انكر وصول ثواب قراءة القرآن على الأموات ذاكرا أن قراءة القرآن على الأموات جائزة يصل ثوابها لهم عند جمهور فقهاء الإسلام، وإنّ كانت بأجرة على التّحقيق وراح يدحض آراء المخالفين ومن قالوا: إن السّلف لم تفعله من وجوه

المؤمنين.

(1) التبّاني، اتحاف ذوي النجابة، مصدر السابق ص 157 .

مختلفة، والملاحظ على الشّيخ التبّاني في رسالته أنّه لم يقتصر على رأي المالكية بل عرض لآراء الشّافعيّة والحنابلة والحنفيّة معتمدا في سوق أقوال المذاهب على أمّهات مصادرهم مستدلاّ بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وبيّن بعد بحثه وحسن استنباطه من المصادر المذكورة إن القراءة على الأموات فعلها السّلف الصّالح من كلام ابن قدامة وابن القيم وغيرهما، وأن عمل المسلمين شرقا وغربا لم يزل مستمرا عليها وأنهم وقفوا على ذلك أوقافا كما في فتوى الإمام ابن رشد[1]

2 – الرسالة الثانية: اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن بنزول المسيح ابن مريم عليه السلام آخر الزّمان

هذه الرّسالة حرّرها التبّاني مؤكّدا عقيدة المسلم الصّحيحة التي تتمثل في رفع عيسى إلى السماء ونزوله آخر الزّمان إلى الأرض وقتله الدجال، ومكثه حاكما فيها بشريعة الإسلام[2] وحاول التبّاني في رسالته إزالة الشبهة التي تسربت في أذهان المسلمين بخصوص قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾[3] وراح يفسر الكلمة وفق أصولها اللغوية التي تقتضي أنّ الوفاة المذكورة ليست الموت[4]

(1) محمد العربي التبّاني، إسعاف المسلمين والمسلمات، تصحيح لجنة من العلماء برياسة أحمد سعد علي، القاهرة، 1950م، ط1، ص35.

(2) التبّاني، اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن، ضمن المجموع المذكور، ص 44.

(3) سورة آل عمران، الآية 55.

(4) ذكر التبّاني المعاني اللغوية الآتية لكلمة متوفيك
الأولى: معناه إني قابضك ورافعك إلي من غير موت ماخوذ من قولهم توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته
ثانيا: أن المراد بالتوفي النوم لقوله تعالى ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها**﴾ سورة الزمر، الآية42، فجعل الله تعالى النوم وفاة

وراح يسوق جملة كبيرة من الأحاديث النّبوية التي تدلّ على نزول المسيح آخر الزّمان وقتاله الكفار ودكّه للصّليب ومكوثه فيهم أربعين سنة ومن جملة هذه الأحاديث قوله ﷺ (ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ثمّ يمكث عيسى في الأرض أربعين سنة إماما عادلا وحكما مقسطا) والرسالة جاءت ردا على من حصر الشريعة في القرآن وفي أحاديث قليلة وقصد بهم الخوارج الذين نبذوا سنته النبي ﷺ ولم يأخذوا بزعمهم إلا بالقرآن فضيقوا على أنفسهم واسعا وكذلك الشيعة والمعتزلة وهؤلاء ردوا أكثر الأحاديث النبوية إلا ما يوافق أهواءهم، وإنّ كان ضعيفا أو باطلا أو ما ارتضوا تأويلها بتأويلات فاسدة

وقد أعقبت هذه الرّسالة بتقاريظ من السّادة تلامذة التباني[1]

الرّسالة الثالثة :خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام

جاءت هذه الرسالة على منوال الرسائل السّابقة موضّحة غَمُضُ مُرجِّحَةَ لما تعارض بين العلماء في مسألة المراد بالمسجد الحرام الذي يتضاعف فيه ثواب الطّاعات.

وقد أورد التبّاني المسألة كما جاءت في كتاب الجامع اللّطيف لابن ظهيرة[2] القرشي المكّي الذي قال: «... فقد اختلف في المراد بالمسجد

ثالثا: الآية على التقديم والتأخير لأنّ الواو لا تفيد الترتيب لغة والمعنى اني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ينظر، ينظر التبّاني، اعتقاد أهل الإيمان ص46.

(1) منهم الشّيخ محمد المشاط المدرّس بالحرم المكّي، وعضو المحكمة الشرّعية الكبرى ومحمد يحيى امان المدرّس بالحرم المكّي وعضو رئاسة القضاء ومحمد أمين كتبي المدرّس بالمسجد الحرام

(2) ابن ظهيرة (850هـ، 891هـ) ابراهيم بن علي القرشي ولي قضاء ها نحو ثلاثين سنة كان شافعيا انتهت إليه رياسة العلم في الحجاز توفي بمكة، ينظر الزركلي، العلام، ج1، ص 52.

الحـرام الذي تتعلّق به المضاعفة في قوله ﷺ في حديث ابن الزبير (وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي)[1] وقد اختلف العلماء رحمهم الله في المراد بالمسجد الحرام على أربعة أقوال: الأول :أنه الحرم المكّي وهـو قـول ابن عباس، إذ قـال الحرم المكّي كلّه هو المسـجد الحرام والثاني أنّه مسـجد الجماعة وهو المكان الذي يحـرم على الجنب المكث فيه والثالث أنّـه مكة المشرفة، والرابع أنّه الكعبة وعزا التبّاني كل رأي لأصحابه موردا أدلتهـم، مرجحـا رأي ابـن ظهـيرة والخـضراوي[2] وهو الوجـه الأقرب للحجة لأنه لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم مسجد محيط بالكعبة وإنّما كانـت الكعبة فقط وحولها مطافها بيوت قريـش وقد عزا التبّاني اختلاف العلماء في المسألة لعدم وجود مسجد اصطلاحي محيط بالبيت في زمنه[3].

ثالثا: كتاب محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب

هـذا الكتاب موجّـه لطلبة المدارس، جمعه التبّـاني من كتب التّاريخ والأدب المشـهورة، وقـد حرّر فيهـا الشّـيخ أرجح الأقـوال والنّقول معتمدا في ذلك على ما رواه ابن خلدون مع زيادات اضافها من كتاب السّهيلي[4] وأيام العرب ضمّن التبّاني في كتابه هذا دول العرب العاربة

(1) الطبراني، المعجم الأوسط، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ، ج7، ص27.

(2) الخـضراوي، نجـم الديـن فقيه أصـولي، نحوي ولـد بالجزيرة الخـضراء من بلاد الأندلس وتفقه بدمشـق وولي قضاء أسـيوط بمصر وتوفي بها سنة 584هـ، محمد رضا كحالة، معجم المؤلّفين ج8، ص50.

(3) التبّاني، خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام، ص78.

(4) السـهيلي، عبـد الرحمـن الخثعمي حافـظ عالم باللغة العربية والسّـير ولـد في مالقة ونبـغ فاتصل خبره بصاحب مراكـش فطلبه فأقام يصنّف كتبه إلى أن توفي بها الزركلي، الأعلام، ج3، ص113.

والمستعربة وأنسابهم ومساكنهم وحروبهم ومن انتقل من الجزيرة منهم وكما ذكر المشاهير من رجالهم في الجاهلية والإسلام[1].

رابعا: نزهة الفتيان في تراجم بعض الشّجعان

ذكر التبّاني في رسالته هذه بعض من اشتهر بالبسالة وذيع صيته في الجاهلية بالفتك والإقدام وأردف بعدها بعض مشاهير الإسلام ناسبا كل واحد إلى قبيلته، متبعا ذلك بحكايات وفوائد[2] (وقد ذكر ممن ذكر ربيعة بن مكدم في الجاهلي و أبو دجانة البراء في الإسلامي).

رابعا: تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري

يقصد التبّاني برسائل محمد زاهد الكوثري[3] المتمثلة في الآتي:

– التأنيب في ردّ أكاذيب الخطيب ويقصد به الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد حين أورد ترجمة أبي حنيفة وطعن بعض النّاس فيه

– إحقاق الحق في الردّ على رسالة مغيث الخلق وهي رسالة ترجح مذهب امام الحرمين الجويني على سائر المذاهب المنسوبة إليه.

– بلوغ الأماني في ترجمة الامام محمد بن الحسن الشّيباني تلميذ أبي حنيفة وأبي يوسف

(1) التبّاني، محادثة أهل الأدب، القاهرة نمطبعة حجازي، 1370هـ، 1951م، ص3، 4.

(2) التبّاني، نزهة الفتيان، مطبعة المدني، 1966م، ص4.

(3) محمد زاهد الكوثري ينسب إلى قرية الكوثري بضفة نهر شيز من بلاد القوقاز من أصل جركسي من قبيلة الشابسوغ الشركسية العريقة درّس الفقه الاسلامي في جامعة الأستانة وعين وكيلا للمشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية واضطر إلى الهجرة إلى مصر بعد استيلاء كمال أتاتورك على الحكم، له مؤلفات دينية منها الرسائل التي علق عليها التبّاني توفي سنة 1952م.

واطّلع التبّاني على مقدّمة زاهد الكوثري التي جعلها على كتاب «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية» للزيلعي وتنبه أنّ كل الرسائل المذكورة ترمي إلى التعصب للإمام أبي حنيفة وأتباعته التبّاني إلى أنّ الكوثري لم يقتصر مثلا في رسالته الأولى على الردّ على الخطيب كما هو المنهج العلمي وكما هو جلي من عنوانه، بل راح يغض من أئمّة الاسلام وعلمائه، وكذلك الشأن في رده على الجويني إذ طعن في نسب الشّافعي وفي اتباعه من محدثين وفقهاء، أمّا ترجمة الحسن الشّيباني فأقيمت على التصريح بغباوة الإمام مالك وكبار أصحابه، أما مقدمة نصب الراية فقد أفرغ فيها جهده بتعصبه تحقيرة يتعصّب لفقهاء الكوفة وخاصّة النّعمان بن ثابت ويحقّر مذهب مالك والشافعي[1] وقد تتّبع التبّاني أهمّ المباحث في الرّسائل الأربع يعلق عليها بعد أن يذكر كلام زاهد الكوثري كاملا.

خامسا: تحذير العبقري من محاضرات الخضري أو إفادة الأخيار

هذا الكتاب سبق وأن أشرنا إليه في إتحاف ذوي النجابة حيث كان التبّاني قد تعقّب الخضري في محاضراته المتعلّقة بالسّيرة النّبوية والتّاريخ وقد أوضح التبّاني في الكتاب السابق المنهج الذي يجب أن يتّبعه المؤرّخ في نقد الرّواية وتمحيص الأخبار وما يجب أن يتحلّى به

(1) التبّاني، تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري، القاهرة، مطبعة الأنوار، 1379هـ، 1959م، ط2، ص4.

هناك رسالة جامعية عنوانها: زاهد الكوثري وآراؤه الاعتقادية للطالب علي الفهيد تحت إشراف أحمد آل عبد اللطيف، جامعة أم القرى والكوثري احد أئمّة المذهب الماتريدي وقد كانت له تعليقات متناثرة على كتب أئمّة السّلف

مـن ملكات المعرفة والنّقد، لقد بلغ ما تعقبه التبّاني على الخضري ستًّا وعشريـن محـاضرة ابتدأها كما قال تلميذه من الثالثـة إلى العاشرة تباعا والثانية عشرة وتاليتها والسادسة عشرة والثامنة عشرة وتابعتيها، ومن الخامسـة والعشريـن إلى الخامسـة والثلاثـين، نقدها نقـدا دقيقا مبرزا مـا يجـب أن يكون عليه المسـلم من حـرص وعدم وثـوق في ما يدعيه المؤرخون في رجال الإسلام.

استهلّ التبّاني نقده بالمحاضرة الثّالثة عن حادثة الفيل مفنّدا مزاعمه عـن الطّـير الأبابيل بـما لا يرضاه صحيـح النّقل والعقل مبسّـطا نقده بالأدلّة كما هو ديدنه في سائر كتبه.

أمّـا المحـاضرة الرّابعة فكشـف فيها عـن جهل المحاضر في سـكن إسماعيل (قبل جرهم) أما الخامسة والسادسة فكشف جهله في دعوى بناء إسماعيل للكعبة وجعلها مطافا يحجها أولاده.

أمّـا المحاضرة السّـابعة فوضح خطـأ المحاضر في وثوقـه بمؤرخي الافرنج وعدم ثقته بمؤرخين الإسلام في قصة بحيرا[1].

أمّا المحاضرة الثامنة فاستدرك على الكوثري تقصيره في إيراد أقسام الوحي، ثمّ سـاقها أحسن سياق ناقلا ذلك عن المحقّق السّهيلي مبطلا سخافاته التي يزعم فيها أن الملائكة والجن والشياطين قوى لا أجسام مستدلا على ذلك بنصوص القرآن العديدة.

(1) التبّـاني، تحذيـر العبقري بيروت، دار الكتب العلميـة، 1404هـ، 1984م، ط2، ص22.

هذه بعض المحاضرات اخترتها تقريبا للفهم لأنه لو أتينا على كل الإشارة لاقتضى ذلك اسهابا مملاّ فالتبّاني بمنهجه كشف جهل الكوثري وقصوره وأنه يروي الروايات دون تمحيص ولا رجوع لمصادر التّاريخ المعتبرة والموثوقة، ويؤكد التبّاني على خطر هذه المحاضرات مِنَ وجهِ أنها منشورة بين طلاّب المدارس والجامعات وقد تغَرس في نفوسهم آراءه الخبيثة وهم أحوج بتاريخ يصون عقيدتهم ويأخذ بأيديهم لفهم التراث الصّحيح ويحذر التبّاني من كتب نسجت على نفس النسق ككتاب التمدن الإسلامي لجرجي زيدان وفتوح الشّام للواقدي والعنترية وذات الهمة وينصح التبّاني الشّباب المسلم من تحري مناقب الصّحابة في الكتب الصّريحة المقطوعة بها، لا في كتب التواريخ التي لا تخل من الواهيات والأباطيل، كما يحذر بالمقابل الأساتذة من ترك عقول أبنائهم فريسة لمثل هؤلاء[1].

سادسا: براءة الأشعريين من عقائد المخالفين

هذا الكتاب جاء باسم غير اسم الشّيخ التبّاني وهو كما يقول الأقربون له أبو حامد بن مرزوق وقد لخص فيه عقائد محمد بن عبد الوهاب ومن قلّده من أدلتهم العقلية والنّقلية محققا ذلك بكثير من أدلة الكتاب والسنة، والشّيخ التبّاني ليس أوّل من ردّ على عقيدة محمد بن عبد الوهاب بل ردّ عليه بعض أتباع المذاهب الأربعة وممن ردّ عليه من الحنابلة أخوه سليمان بن عبد الوهاب ومن حنابلة الشّام آل السطّي والشّيخ عبد الله القدومي

(1) التبّاني، تحذير العبقري، مرجع سابق، ص 43.

النابلسي وغيرهم وقد حصر التبّاني عقائد محمد بن عبد الوهاب ومقلديه في أربع مسائل : الأوله في تشبيه الله سبحانه وتعالى بخلقه، وتوحيد الألوهية و الربوبية وعدم توقيرهم للأنبياء وتكفير المسلمين وهو مقلد فيها كلّها لأحمد بن تيمية ولقد أشاعوا أنّ نقل الدّين ينحصر عندهم في ابن تيمية وفي تلميذه ابن القيّم وفي محمّد بن عبد الوهاب وقد تتبع التبّاني شبه ابن عبد الوهاب وأظهر نزعة كلامية دحضت كل ما يدعيه هذا الأخير من تكفير الأشاعرة .

- التعقيب المفيد من هدي الزرعي الشديد

تعقّب التبّاني في رسالته هذه الشّيخ ابن القيّم في كتابه زاد المعاد في مسألة هدم القباب التي على القبور لأنها أسسّت على معصية الرسول ﷺ.

- رسالة لآل حمادوش

وجدت في مصادر موثوقة أن للتبّاني رسالة لآل حمادوش وكذلك أشارت الي الرسالة الكثير من المواقع ولكن للأسف أن هذه الرسالة غير منشورة يعود نسب وآل حمادوش إلى ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب، وسيدي مسعود مؤسّس الزاوية كان معاصرا لعبيد الله المهدي مؤسّس الدولة الفاطمية واستوطن «قجال» قادما إليها من فاس، وهذه الزاوية تأسّست على يد سيدي محمد حفيد سيدي مسعود بعقد موقع من قبل العلاّمة الفقيه المالكي أبي بكر محمد المعروف بابن العربي الاشبيلي وينص العقد على العقيدة والمذهب المعتمدين في التعليم بالزاوية وهما العقيدة الأشعرية

والمذهب المالكي ولقد ظلت هذه العقيدة تضفي على الزاوية سمة التدين من غير ابتداع كما حفظها المذهب المالكي من الغلو والتطرف، ويظهر لي فيما قرأت أنّ هذه الزاوية قد استنشقت أريج الوهابية السلفية وغزتها ولعلّ هذا هو السّبب الذي جعل التبّاني يكتب رسالته[1].

- حواشي بخط العلامي التبّاني على كتاب فتح المتعال

المسألة التي علّق عليها الشّيخ التبّاني هي مسألة شدّ الرحال والتبرك بآثار الصّالحين، فقد جاء في كتاب فتح المتعال[2] قال العراقي: وأمّا تقبيل الأماكن الشريفة: على قصد التبرك وأيدي الصّالحين وأرجلهم فهو حسن محمود باعتبار القصد والنية وقد سأل أبو هريرة الحسن عن المكان الذي قبله رسول ا لله ﷺ وهو سرته فقبلها تبركا بآثاره وذريته وقال أيضا أخبرني الحافظ أبو سعيد بن العلائي قال رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ أنّ الامام أحمد سئل عن تقبيل قبر النّبي وتقبيل منبره فقال لا بأس بذلك قال فأريناه الشّيخ تقي الدين بن تيمية فصار يتعجب من ذلك ويقول عجبت من أحمد عند كلامه وقال: أي عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد بن حنبل أنّه غسل قميصا للشافعي وشرب الماء الذي غسل به وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم فكيف بمقادير الصّحابة وكيف بآثار الأنبياء عليهم السلام.

(1) الحقيقة أن هذا مجرد رأي لأنّ الرسالة لم احصل عليها منشورة.

(2) التلمساني، فتح المتعال، ص 329.

أما تعليق التبّاني فكان الآتي: المراد به الحافظ خليل بن كيلكدي المقدسي[1] الأشعري وترجمته مستوفاة من طبقات الشّافعيّة لابن السّبكي وابن تيمية أوّل من حرّم شدّ الرحال لزيارة الأنبياء مطلقا ومنع التوسل والتبرك بآثار الصّالحين وكلامه في هذه الأشياء مضطرب ولكن مع ذلك يكفر النّاس وجاء ابن عبد الوهاب في القرن الثالث عشر فحكم هو وأتباعه بكفر الأمّة عموما منذ ستة قرون وأنه لا يوجد موحد على وجه الأرض إلا هو وأتباعه.

الخاتمة:

إن هذه الجولات السّريعة المقتضبة في تراث التبّاني دلت على قيمة الرّجل وموسوعيته الفذة في المنقول والمعقول، وطريقة استنباطه وتعليله للمسائل، والرجل أذ اهتمّ بهذا النوع من التراث وهو وقوفه حصنا منيعا لكلّ مناوئ للشريعة من أصحاب النزعات والأهواء منافحا عما يدعيه المبطلون يدفع عنه تحريف الغالين وتفسير الجاهلين فهو أراد في النهاية أن يحفظ عقول الناشئة المسلمة من مثل ما ينشره أصحاب الطّوائف المخالفة. من شيعة وخوارج ووهابية مؤكدا على وسطية أهل السنة وعدم غلوهم وكذلك تمكنه من نقد مناهج المؤرخين في تناولهم للأحداث التّاريخية، منبها الناشئة والأساتذة إلى ضرورة تمحيص ما يعرضه المؤرخين.

حقيق بهذا الرّجل أن يُعكف على تراثه بالدراسة ليستفيد منه العام والخاص من المسلمين وأن لا يُترك مجهولا مغمورا حتى بين ذويه وأهله.

---

(1) الحافظ خليل بن كيلكدي بن عبد الله العلائي الدمشقي أبو سعيد محدّث فاضل بحاث ولد وتعلّم في دمشق ورحل رحلة طويلة ثمّ أقام في القدس مدّرسا في الصلاحية وتوفي فيها، الزركلي، الأعلام، ج2، ص321.

العربي بن التبّاني النّاقد الموسوعيّ البصير

أ. محفوظ بن ساعد بوكراع
باحث في التّراث الجزائري

قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [سورة التوبة، الآية 122].

لقد عرف قطرنا الجزائريّ عبر القرون أعلاما أفذاذا في مختلف العلوم، سطّر التّاريخ أسماءهم وصدح بها في كلّ أصقاع الأرض من فجر التّاريخ إلى اليوم، والنّاظر لصفحات التّاريخ يعلم علم اليقين أنّ قطرنا قد أسهم إسهاما موفورا في إثراء الثّقافة الإنسانيّة عموما، والعربية الإسلاميّة خصوصا، فهذه كتب التّراجم والسّير ودواوين التّاريخ والأدب غاصّة بأخبارهم، يعرفها كلّ من سبر كتب القوم، وها أنا أذكر من كل قطر من أقطار هذا البلد الحبيب -شمالا وجنوبا، شرقا وغربا- واحدا من هؤلاء الأفذاذ عبر القرون فمنهم:

العلاّمة أبو بكر بن حماد التّيهرتي المتوفى سنة 296هـ/ 908م، ومحمّد بن الحسين الطّبني 394 هـ/ 1114م، والعلاّمة ابن رشيق المسيلي المتوفى سنة 463هـ/ 1071م، ويوسف بن إبراهيم السّدراتي الورجلاني 570هـ/ 1175م، وعلي بن عبد الله بن ناشر الوهراني

المتوفى سنة 615هـ/ 1219م، ومحمد بن أحمد المعروف بابن مرزوق التّلمساني المتوفى سنة 781هـ/ 1379م، والعلامة ابن قنفذ القسنطيني المتوفى سنة 809هـ/ 1406م، وعبد الرّحمن الأخضري البسكري المتوفى سنة 953هـ/ 1546م، وامحمد بن أبي محمد الملقّب بعالم توات الأدراري المتوفى سنة 1008هـ/ 1599م، وعبد المالك البوني المتوفى سنة 1139هـ/ 1726م، ومحمد أمزيان بن علي الحدّاد الصّدّوقي البجائي 1290هـ/ 1873م، وحمدان الونّيسي القسنطيني المتوفى سنة 1330هـ/ 1912م، وغيرهم كثير....

وموضوع محاضرتنا واحدٌ من هؤلاء الأعلام الأفذاذ، إنّه علاّمة زمانه بلا منازع، الشّيخ محمّد العربي بن التبّاني السّطيفي المتوفى سنة 1390هـ/ 1970م، الذي سندرسُ فيه جانبا غُفلا ضرب عنه الدّارسون صفحا، وهو أجدر الجوانب العلميّة في شخصيّة الرّجل بالبحث والدّراسة، ألا وهو عقليّة النّقد عند ابن التبّاني، وذلك من خلال ما خطّه بنانه في كتبه وتعليقاته، نكشف عن دررها، وعن العبقريّة الفذّة لهذا الرّجل، صاحب العين الفاحصة، والقلم المطاوع السّيال، نغترف معه من كلّ مَعِينٍ مِنَ العلم طَرَقَه، فتلخّصت محاضرتنا في المحاور الآتية:

المحور الأوّل: منهج ابن التبّاني في النّقد.

المحور الثّاني: قامات أدبية وعلمية تحت منظار محمد العربي بن التبّاني.

المحور الثّالث: نماذج من تعقيبات ابن التبّاني.

المحور الأوّل: منهج ابن التبّاني في النّقد:

لقد تشرّب ابن التبّاني منهج علماء الحديث في الجرح والتّعديل، فإذا ما قرأنا كتبه تحسّسنا تلك النّبرة النّقدية القديمة التي تُنبِئ عن الصّدق،

والمستجيبةِ للعقل والمنطق، وقد انطلق في ذلك من القواعد التي أصّلوها في كتبهم، فلا مقبول عنده إلاّ ما خضع لتلك القواعد الدّقيقة التي اعترف بصحّتها وسَبْقِها محقّقون من غير المسلمين[1]، ولْنَدَعْ ابن التبّاني يُعرِب عن منهجه هذا من خلال ما كَتَبَهُ عن نفسه، قال في كتابه: (تحذير العبقريّ ج1 ص34): (... التّاريخ نقلٌ محضٌ، يُشترط فيه ما يُشترط في الأثرِ مِنْ عدالة الرّواة النّاقلين لأيّ حادثة من حوادثه، تتعلّق بأيّ شخص كان من النّاس، وضبطهم لِمَا نقلوه، وغير ذلك من شروط الخبر المعتبرة في النّاقلين فردا فردا، فمجال الرّأي في أيّ حادثة منه لا يكون إلاّ بعد استيفائها شروط الصّحة للخبر، وإنّ نقص شرط من الشّروط المعتبرة فيه فالرّأي حينئذ معزول، والفهم -مهما وَثِقَ به صاحبه وغَيْرُه- مطروح، هذا هو التّحقيق والأساس الذي يجب على كلّ من نصب نفسه للطّعن في عامّة الأمّة، أنْ يبني انتقاده عليه، فكيف به إذا كان في خاصّة خاصّتها، وقد كان المسلمون ولن يزالوا سالكين منهج الحقّ والتّحقيق والاعتدال في تاريخ رجالهم، رغم محاولة بعض مؤلّفي هذا العصر من المسلمين تشويه حقائق التّاريخ الإسلاميّ، ونطْح صرح المجد التّالد بالجهل والتّقليد، وإذا كان كثير من مؤرّخي الأقدمين يَجْمَعُونَ في مؤلّفاتهم الغثَّ والسّمينَ، ويقدّمونه للنّاس بدون تمييز، وكثير منهم من أهل الأهواء، وكثير منهم لا معرفة لهم بعلم الإسناد وفضائل الصّحابة، ولأجل ذلك قال شيخ الإسلام ابن دقيق العيد: «أعراض المسلمين حفرة من حفر النّار وقف على شفيرها المؤرّخون

(1) قال المستشرق الألماني مرجليوث: "ليفخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم"، نقله عنه المعلّمي في مقدمة تحقيقه لكتاب (الجرح والتّعديل لابن أبي حاتم الرّازي صفحة: ب. طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند)، وانظر ما قاله أسد رستم النّصراني في كتابه "مصطلح التّاريخ" الطبعة الأولى 2002م المكتبة العصرية بيروت.

والأمـراء». فكيف بالمتأخّرين الذين ليس عندهم إلاّ التّقليد لكلّ من هبّ ودبّ، ولقد هزُل علم التّاريخ في هذا العصر، حتىّ تسوّر على التّأليف فيه مـن لم يشَـمَّ له رائحـة، ولا عجب في ذلك؛ لأنّـه إذا كان عبارة عن رصف مقال بأسـلوب عصريّ، وجمـع شيء من هاهنا وهاهنا، فهو ميسـور لكلّ مـن حصّل طرَفـا من مبادئ اللّغـة العربيّة، ليصبح بـه مندرجا في مصافّ المؤلّفين، ويصدُق عليه قول العلاّمة أبي الحجّاج البلويّ الأندلسيّ[1]، أحدِ أعيان المائة السّادسة للهجرة: «خذ من هاهنا وضع هاهنا وقلْ مؤلّفه أنا». وحتّى تسـوَّر عليه المناوئون للإسـلام، وأقبلت النّاشئة الإسلاميّة -برغبة صادقة- عـلى مطالعة تآليفهـم ومجلاّتهم المملوءة بالمفتريـات، والطّعن في الإسلام ورجاله بأساليبَ متنوّعة).

المحور الثاني: قامات أدبية وعلمية تحت منظار العربي بن التبّاني:

لم يكـن العـربي بن التبّـاني بالهيّـاب، فقـد كان صاحب عقليّـة تأبى الإمّعيـة، إنّه صاحب ذكورة علميّة بحقٍّ، يغربل الأفكار التي يقرأها أو يسمعها، مطبّقا عليها القواعد العلميّة الدّقيقة من علم الحديث (الجرح والتّعديـل)، وعلم أصـول الفقه، والمنطق، واللّغـة العربية بعلومها...، وشـعاره في ذلك: «اعْرِف الحقّ تعرف أهله»، «يُعْرَفُ الرّجال بالحقّ لا الحقّ بالرّجال». ولذا لم تُرْهِبْهُ قامات كبيرة، وأسـماء لامعة، مجرّدُ ذِكْرِهَا يُحيلُنـا على أعـمال جليلة لهـا؛ إِذْ لها على الثّقافة الإسـلاميّة يـدٌ وأَيُّ يدٍ، ولقـد طال قلمه -رحمـه الله- علماءَ من عصور مختلفة، وهم فرسـان في

(1) هـو يوسـف بن محمد بن عبد الله بـن يحيى بن غالب، أبو الحجـاج البلوي المالقي الأندلـسي المالكـي، ويقـال لـه ابـن الشـيخ: عـالم باللغـة والأدب، تـوفي بمالقة سـنة 604هـ/ 1207م. أنظر عنه (الأعلام للزركلي ج8 ص247).

ميادينهم، من أمثال الشّيخين: أحمد بن عبد الحليم تقيّ الدّين ابن تيمية المتوفّى سنة 728هـ/ 1328م، وتلميذه محمد بن أبي بكر شمس الدّين ابن القيّم المتوفّى سنة 751هـ/ 1350م، ومؤرّخ الإسلام عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفّى سنة 808هـ/ 1406م، والعلاّمة محمّد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري -آخر وكيل لمشيخة الإسلام في الخلافة العثمانية- المتوفّى سنة 1371هـ/ 1952م، ومحمد عبده بن حسن خير الله -فيلسوف الإسلام ومفتي الدّيار المصرية في زمانه- المتوفّى سنة 1323هـ/ 1905م، والأستاذ الكبير محمد بن عفيفي الباجوري -المعروف بالخضري-، المتوفّى سنة 1345هـ/ 1927م، والأديب والمؤرّخ النّصرانيّ جرجي زيدان المتوفّى سنة 1332هـ/ 1914م، والقائمة طويلة....

وكان من توفيق الله تعالى أن وقفنا على كتاب: «سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول ﷺ» لقاضي الجماعة بالجلفة، عبد الله بن محمد بن الشّارف بن علي حشلاف الحسني الأرومة، المستغانمي المنشأ، المتوفّى سنة 1356هـ/ 1937م، أرانيه صديقي الشّيخ عمر بن صغير إمام بمسجد ابن باديس بسطيف، فتصفّحته، فإذا هو مكتوب على هوامشه الكثير من التعليقات، وإذا بي أقف على قول هذا المُحَشِّي: مصحّحه محمد العربي بن التبّاني، وكان الخطّ خطّه في جميع التعليقات حتى نهاية الكتاب، فطرت به فرحا، وهذه النسخة مصورة (طبق الأصل) من مقام سيدي النّعاس بولاية الجلفة، وقد قمت -ولله الحمد- بتحقيق هذا الكتاب رفقة صديقي عمّار بسطة، والكتاب ينتظر الطّبع، وقد سُقْتُ نماذج من هذه التعليقات في محاضرتنا هذه.

وإليك رأيه في العلاّمة ابن خلدون صاحب التّاريخ المشهور:

-قال ابن التبّاني في كتابه (تنبيه الباحث السّريّ، ص112) معلّقا على الكوثري وابن خلدون: (كلام ابن خلدون الذي توكّأ عليه الكوثري في تحقير المالكية -عموما- خاصّ بمالكية المغرب والأندلس، قال [الكوثري]: ولذا ترى ابن خلدون يقول عن مذهب مالك ما لفظه: «وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا لأهل الحجاز أَمْيَلَ لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضّا عندَهم، لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها».اهـ (مقدمة علم الفقه)، **ابن التبّاني**: وهذا من أقبح التّصرف المكشوف لكلام ابن خلدون، ولا نظنّه يجهل اتّساع مذهب مالك فيما ذكرناه، ولا جهله بمدلول كلام أبي زيد، وكلام ابن خلدون هذا في مقدمة تاريخه التي يُعجَب بها كثير من أهل العصر، وله فيها مجازفات كثيرة ومؤاخذات، وقد نقدها العلماء، فمنها -وهو ما لا نظنّ الكوثري لم يطّلع عليه-: زعمُه أنّ الإمام أبا حنيفة لم يرو من السنّة إلاّ سبعة عشر حديثا، ومنها طعنه في الأحاديث الكثيرة المرويّة في المهديّ، وزعمه أنّ ذلك من خرافات الرّافضة، ومنها تخطئته للحسين بن علي، ومدحه لزيد بن معاوية، وتفنيده لخلافة علي بكلام معسول، بزعمه أنّ بني أميّة هم أهل العصبيّة في قريش، وغير هذه كثير تدلّ المطّلع الممارس على أنّه -رحمه الله- مُزْجَى البضاعة في الرّواية والدّراية معا، ويدلّ على ذلك أيضا عدم لحوقه في جريه في مضمار الطريقة العلميّة أقرانَه المشاركين له في المشايخ، كالعلاّمتين الشريف أبي عبد الله، وأبي عثمان العقباني، والحافظ المقري الكبير بتلمسان، والقبّاب

بفاس، والشّيخ ابن عرفة بتونس، وقد مالت نفسه إلى خدمة الملوك، فتولّى رئاسة قلم الإنشاء عند بني مرين، وغيرهم من أمراء العرب، وتنقّل في ذلك بينهم ومدحهم، ومع ذلك لم تَصْفُ له الحياة، فرحل إلى غرناطة بالأندلس، فوجدها مشحونة بجلّة العلماء، مثل شيخ الشّيوخ أبي سعيد بن لبّ، والعلاّمة أبي إسحاق الشاطبيّ، ولم يكن له في صنعة الإنشاء بها نصيب مع وزيرها لسان الدّين بن الخطيب، فرجع إلى مسقط رأسه مدينة تونس، فلم يقرّ قراره فيها أيضا، وبعد برهة نزح عنها إلى مصر القاهرة، فاتّخذها وطنا، ونفق سوقه بها، فولّي بها قضاء المالكية، وبعض وظائف التّدريس إلى أن توفّي بها رحمه الله).

نماذج من تعقيبات الشّيخ ابن التبّاني

أولا: النّقد التّاريخي:

- قال ابن التبّاني معلّقا على قول حشلاف في (سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول ص25): (قوله: بعامل مصر علي بن سليمان الهاشمي إلى آخره، هذا غير معروف، والمعروف أنّ واضحا مولى صالح بن منصور -كان على بريد مصر، وكان شيعة لعلي بن أبي طالب- حمل إدريس إلى أرض المغرب على البريد، فلمّا سمع الهادي هذا طلب واضحا، وصلبه وقتله). فالتبّاني هنا نقد حشلافا، وحشلاف نقل هذا الكلام عن صاحب الاستبصار. فيكون النّقد لكليهما.

-وقال معلّقا على قول حشلاف في (سلسة الأصول في شجرة أبناء الرسول ص24): (قوله في الرّشيد: حصل الأذى منه للعلويّين ما هو معلوم ...الخ، والصّواب أنّ الذي حصل منه الأذى الشّديد

للعلويّين هو جدّه أبو جعفر المنصور، قتل وعذّب منهم جماعة كثيرة أقبح تعذيب، وفعل بهم ما لم يفعله بهم بنو أميّة).

لطيفة للمهتمين بأسانيد ابن التبّاني:

-قال عند ذكر حشلاف للشّيخ محمد بن علي السنوسي الخطّابي الإدريسي الحسني في (سلسة الأصول في شجرة أبناء الرسول ص99) ما نصه: (قف على أنّ الشّيخ السّيد محمد بن علي الخطّابي -صاحب جغبوب وجميع الزّوايا التي أسّست بليبيا- وهو شريف من ذرية عمران بن إدريس، وهو: شيخ بعض شيوخنا، ولي أسانيد من طريقه).

- قال ابن التبّاني في كتابه (تنبيه الباحث السّري ص114) معلّقا على كلام الكوثري الذي ساقه عن ابن خلدون ليعضّد به ما يذهب إليه من انتقاص المالكية ومذهبهم، قال ابن خلدون في مقدّمة تاريخه: «وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا لأهل الحجاز أَمْيَلَ لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضّا عندهم، لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها». اهـ

بطلان كلام ابن خلدون من عدّة أوجه:

الوجه الأول: مذهب مالك شيء واحد، [وهو] عبارة عن مسائل كلّية، تلقّاها عنه العراقيّون والمصريّون والمغاربة والأندلسيّون مُشاعا بينهم، فيلزم في كلامه التّناقض، وهو أن يقال: مذهب مالك لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، ونقّحته الحضارة وهذّبته؛ لأنّ ما رواه المغاربة والأندلسيّون لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، وما رواه

العراقيون وغيرهم نقّحته الحضارة وهذّبته، والمفروض أنّ المذهب مجموع كلّيّ مشترك بين الجميع.

الوجه الثّاني: يقال مقصوده ما انفرد بروايته المغاربة والأندلسيّون عن العراقيّين والمصريّين من المسائل، وهو الذي لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما يظهر من كلامه، وهو فاسد أيضا، لأنّه يقال عليه: بعض مذهب مالك لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، ويلزم عليه حينئذ دعوى صعبة المرتقى، وهي تمييز البعض الذي انفرد به المذكورون مسألةً مسألةً عن البعض الذي هذّبته ونقّحته حضارة المشارقة كذلك، وهو -رحمه الله- لم يكن فقيها في مذهب مالك، فضلا عن كونه حافظا لأقوال مذهبه كلّها، فضلا عن إمكانه التّمييز بين ما رواه هؤلاء وهؤلاء من الأقوال، فصعوده إلى قمّة «إفريست» أقرب إليه من هذا، فتحقّق أنّ هذا الكلام من مجازفات كتّاب الإنشاء، وهم الشّعراء، يتوسّعون في قذف الكلام بدون مبالاة كما لا يخفى.

الوجه الثّالث: يبطله أيضا محور مذهب مالك، فإنّه يدور على كبار أصحابه المصريّين: ابن وهب، وابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم، وحضارة مصر بيت العلم فيها [قائم] على يد هؤلاء وتلامذتهم، طبقة بعد طبقة وغيرهم، وارتحال أهل العلم من العراق والمشرق والمغرب والأندلس للأخذ عنهم ممّا سارت به الرّكبان، وقد ضُبط في بطون المجلّدات، وأمّا ازدهار الحضارة المزعومة في عصر الطّولونيّين، والإخشيديّين، والفاطميّين، ومزاحمتها لبغداد فيها، وتفوُّقها عليها في عهد الأيّوبيّين والمماليك البحريّة والجراكسة، وهلمّ جرّا إلى اليوم، فلا يحتاج إلى دليل:

أصبح الملك بعد آل علي * مشرقا بالملوك من آل شادي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو * م ومصر تزهو على بغداد

ثانيا: النّقد اللّغوي:

-فمن مثال اختلاف اللغات قوله معلّقا على حشلاف(سلسلة الأصول ص26): «فبايعوه قبائل»، هذه لغة شاذّة، واللّغة الفصيحة: «فبايعه».

-ومثال تعقيبه في العروض قال معقبا على قول حشلاف(سلسلة الأصول ص157):

"أشيخ العرب ته دلالا وعزا * لك فخر على الملا وبهاء"

فقال: هذا لا يتّزن؛ إلاّ إذا قرئ: "أيّها الشّيخ تُهْ دلالاً وعزّا" (مثلا).

-قال الشّيخ في رسالته «اعتقاد أهل الإيمان ص45» مجيبا على من أنكر رفع عيسى ونزوله آخر الزّمان ما نصه: (...وتُزال الشّبهة التي تسرّبت إلى المسلم بما يأتي: القرآن نزل بلغة العرب، فليس لأحد أن يتحكّم فيه برأيه أو لغته، فالتّشبُّث لمدّعي موت عيسى -عليه السلام- بقوله: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ [سورة آل عمران، الآية55] باطل عند أهل القرآن من أوجه:

الأول: معناه: إنّي قابضك ورافعك إليّ من غير موت؛ مأخوذٌ من قولهم: تَوَفَّيْتُ الشّيء واستوفيته؛ إذا أخذته وقبضته تماما، والمقصود منه على هذا الوجه: أن لا يصل أعداؤه من اليهود إليه بقتل ولا غيره، ولا يقال على هذا الوجه: يلزمُ أن يكون التَّوَفِّي عينَ الرّفع، فيصير قوله:

﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ تكرارا؛ لأنّ قوله: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**﴾ يدلّ على حصول التّوفِّي، وهو جنس تحته أنواع؛ بعضُها بالموت، وبعضها بالإصعاد إلى السّماء، فلمّا قال بعده: ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ كان هذا تعيينا للنّوع لا تكرارا.

الثاني: أنّ المراد بالتّوفِّي النّوم، ومنه قوله -عزّ وجلّ-: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [سورة الزمر، الآية 42] فجعل الله -تعالى- النّوم وفاة، وكأنّ عيسى على هذا الوجه نام فرفعه الله إليه وهو نائم؛ لئلاّ يلحقه خوف، والمعنى عليه: «إنيّ منيمك ورافعك إليّ».

الثالث: الآية على التّقديم والتّأخير؛ لأنّ الواو لا تفيد التّرتيب لغة، والمعنى: إنّي رافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد أن تنزل من السّماء، يدلّ عليه قوله -تعالى-: ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى**﴾ [سورة طه، الآية 129] التّقدير: ولولا كلمة سبقت من ربّك وأجل مسمّى لكان لزاما، وقال الشّاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق ❊ عليك ورحمة الله السّلام

أي عليك السّلام ورحمة الله، فالآية على هذا الوجه تدلّ على أنّ الله -تعالى- يفعل به ما ذُكر.

ثالثا: النّقد الفقهي والأصولي والمنطقي:

-قال الشّيخ في الرّسالة المسمّاة (إسعاف المسلمين والمسلمات ص4): (... لو سُلّمَ عدم فعل السّلف لها (أي القراءة على الأموات) لا يلزم منه المنع الخاصُّ المدّعى؛ فعدم فعلهم لها ليس بدليل، وليس كل شيء من مسائل الفروع لم يفعله السّلف يكون محظورا، ومن ادّعى ذلك فعليه الدّليل، ولا سبيل له إليه).

-قال -رحمه الله- في كتابه (إتحاف ذوي النجابة ص 31) بعد قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [سورة البقرة، الآية 143] ...: وفيها دليلٌ على صحّة الإجماع ووجوب الحكم به؛ لأنّهم إذا كانوا عدولا شهدوا على النّاس فكلّ عصر شهيد على من بعده؛ فقول الصّحابة حجّة وشاهد على التّابعين، وقول التّابعين حجّة على من بعدهم، وإذا جعلت الأمّة شهداء فقد وجب قبول قولهم، وقد احتجّ به جمهور أهل السّنة وجمهور المعتزلة على حجّية إجماع الأمّة فقالوا: أخبر الله تعالى عن عدالة هذه الأمّة وعن خيْريّتهم فلو أقدموا على شيء من المحظورات لما اتّصفوا بالخيريّة، وإذا ثبت أنّهم لا يُقْدِمُونَ على شيء من المحظورات وجب أن يكون قولهم حجّة، فإنّ قيل: الآية متروكة الظّاهر لأنّ وصف الأمّة بالعدالة يقتضي اتّصاف كل واحد منهم بها، وخلاف ذلك معلوم بالضّرورة، فلا بدّ من حملها على البعض، فنحن نحملها على الأئمّة المعصومين، سلّمنا أنها ليست متروكة الظّاهر لكن لا نسلّم أن الوسط من كل شيء خياره وهو مُعترَضٌ بوجهين:

الأول: إن عدالة الرّجل عبارة عن أداء الواجبات، واجتناب المحرّمات، وهذا من فعل العبد، وقد أخبر الله -تعالى- أنّه جعلهم أمّة وسطا؛ فاقتضى ذلك أنّ كونهم وسطا من فعل الله تعالى، وذلك يقتضي أن يكون كونهم وسطا غير كونهم عدولا، وإلاّ لزم وقوعُ مقدورٍ واحد بقادرين وهو محال.

الثّاني: أن الوسط اسم لما يكون متوسّطا بين شيئين فَجَعْلُهُ حقيقة في العدالة والخيريّة يقتضي الاشتراك وهو خلاف الأصل.

سلّمنا اتّصافهم بالخيرية، ولكن لِمَ لا يكفي في حصول هذا الوصف الاجتناب عن الكبائر فقط؟ وإذا كان كذلك احتمل أنّ الذي أجمعوا عليه وإنّ كان خطأ لكنّه من الصّغائر فلا يقدح ذلك في خيريّتهم، وممّا يؤكّد هذا الاحتمال أنّه تعالى حكم بموتهم عدولا ليكونوا شهداء على النّاس، وفعل الصّغائر لا يمنع الشّهادة، سلّمنا اجتنابهم الصّغائر والكبائر، ولكن الله تعالى بيّن أنّ اتّصافهم بذلك إنّما كان لكونهم شهداء على النّاس.

رابعا: النّقد العقائدي:

-قال ابن التبّاني في (تحذير العبقري ج 1 ص 189) ما نصّه: (غلطه الفاحش [أي الخضري] في تقسيم الخلافة، فقوله: «لم يدفن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان؛ **الأولى**: عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت، **الثانية**: تخصيصها؛ وهذه الفكرة ذات شعبتين **الأولى**: تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه، **الثانية**: تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله ﷺ ...إلخ»، **ابن التبّاني**: يعني أنّ الخلافة تنقسم إلى قسمين خاصّة بقريش كلّها، وخاصّة ببعض بطونها؛ [هذا] تقسيم فاسد مختلط، والحقيقة المنقولة في تاريخ الإسلام وهو بين أيدينا: أنّه لم يكن هناك إلاّ فكرةٌ واحدة وهي التّخصيص؛ فالأنصار رضي الله تعالى عنهم رأوها خاصّة بهم لأنهم جند الرسول ﷺ والدّار دارهم، والمهاجرون كلّهم رأوها خاصّة بقريش كلّها لأنّهم قرابته).

-قال ابن التبّاني في رسالته (إتحاف ذوي النجابة ص58): بعد قوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [سورة المائدة، الآية54] ...

أمّا قول الرّافضة: إنّ هذه الآية نزلت في حقّ عليّ -كرّم الله وجهه-، بدليل أنّه ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينّ الرّاية غدا رجلا يحبّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فكان ذلك هو عليّ -رضي الله عنه-، فالجواب: إنّ هذا خبر آحاد، وعندهم لا يجوز التّمسك به في العمل فكيف يجوز التّمسك به في العلم -أي الاعتقاد-، وأيضا: إثبات هذه الصّفة لعليّ لا يستلزم انتفاءها عن أبي بكر، وعلى فرض تسليم انتفائها عنه لا يدلّ على انتفاء جميع الصّفات التي في الآية عنه، على أنّنا متمسّكون بظاهر القرآن الذي هو متواتر قطعي، وهم متمسكون بخبر الآحاد الذي هو ظنّيّ المتن والدّلالة، واحتجاجهم على إمامة عليّ في الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**(*) **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [سورة المائدة، الآيتين 55، 56] [احتجاجهم بها] باطل؛ لأنّ لفظ: ﴿**الَّذِينَ**﴾ عامّ في جميع المؤمنين، وقد سئل أبو جعفر محمد الباقر عن معنى قوله: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...**﴾ هل هو عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- فقال: عليّ من المؤمنين، يَذْهَبُ إلى أنّها واردة في جميع المؤمنين، على أنّ حمل لفظ الجمع على الواحد وإنْ جاز على سبيل التّعظيم لكنّه مجازٌ لا حقيقةٌ، والأصل حمل الكلام على الحقيقة، وحيث تحقّق أنّ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...**﴾ [سورة المائدة، الآية 54] مِنْ أقوى الدّلائل على صحّة إمامة أبي بكر، فلو دلّت هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...**﴾ على إمامة عليّ بعد الرّسول مباشرة لزِمَ التّناقض بين الآيتين، وذلك باطل، فوجبَ القطع بأنّ هذه الآية لا دلالة فيها على أنّ عليّا هو الإمام بعد الرّسول، وعليٌّ -رضي الله

عنه- أعلم بتفسير القرآن من الرّافضة، فلو كانت هذه الآية دالّة على إمامته لاحْتـجّ بها في محفل مِنَ المحافل، وليـس لهم أنْ يقولوا: تَرَكَ الاحتجاج بها تَقِيَّةً، فإنّهم ينقلون عنه أنّه تمسّك يوم الشّورى بخبر الغدير، وخبر المباهلة، وجميع فضائله، ولم يتمسّـك الْبتَّةَ بهذه الآية في إثبات إمامته، وهذا يوجِبُ القطع ببطلان مذهب الرّافضة، وَهَبْ أنّها دالّة على إمامته؛ لكنّا اتّفقنا معهم عـلى أنّهـا عند نزولها ما دلّت على حصول الإمامة لعلي في وقته؛ لأنّه ما كان نافـذ التّصرف في الأمّة حال حياة الرّسـول ﷺ، فلم يَبْـقَ إلاّ أن تُحْمَلَ عَلَى أنّها تدلُّ على أنّ عليًّا سيصير إماما بعد ذلك، ومتى سلّموا هذا فنحن نقول بموجبه؛ فنحمله على إمامته بعد أبي بكر وعمر وعثمان؛ إذْ ليس في الآية ما يدلُّ على تعيين وقتِ إمامتهِ).

خامسا: النّقد الحديثي:

-قال ابن التبّاني معلّقا على حشـلاف ص15 فيما نقله عن الواقدي في عـدد سراريه ﷺ: (كانت سراري النبـيّ ﷺ: ثمانية وأربعين سُرِّية. ابن التبّـاني: [هذا] باطلٌ لا أصلَ له، والواقدي واهٍ باتّفاق أئمّة الأثر، والمعروف أنّ سراريه ﷺ أربعة فقط).

-قال معلّقا على حديث أورده حشلاف ص26: (عن فاطمة رضي الله عنها قالت: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «إنّ لي بالمدينة أنصارا، وَلِوَلَدَيَّ بالمغرب الأقصى أنصارا، يا فاطمة سـيقتل الحسـن والحسين، ولا يجد ذريّتُهُما أنصارا إلاّ البرابرة بالمغرب الأقصى فيا شقاوة من قتلهما ويا سعادة من أحبّهما، يا فاطمة: قد جعل الله في قلوب البرابرة لذرّيتي محبّة ورحمة، وسيكون قوم من البرابرة على اليقين والدّين الصّحيح إلى يوم الدّين". ابن التبّاني: هذا الحديث غير ثابت عن النّبي ﷺ.

- قال الشّيخ في رسالته المسمّاة (إسعاف المسلمين والمسلمات ص40): والمانع لأخذ الأجرة على التّعليم وغيره ربّما يُشْكِلُ عليه فهم ما رواه بعض أصحاب السّنن كأبي داوود في الوعيد على أخذ الأجرة على التّعليم كحديث القوس، ولا يَحتجّ بهذا إلاّ من لا خبرة له بمراتب الأدلّة وكتب الحديث، فإنّ أئمّة الحديث أطبقوا على تقديم ما في الصّحيحين أو في أحدهما في الاحتجاج على ما في السّنن، وحديث أبي سعيد الخدري، الدّالُّ على جواز أخذ الأجرة على القرآن مرويّ في الصّحيح وهو نصّ صريح عامّ، وقد نهضت به حُجّةُ الشّافعية في هذه المسألة، وحديثُ النّهي مرويٌّ في السّنن؛ فكيف يقدَّم عليه، وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا في كلام الحافظ ابن حَجَرٍ، وبعد هذا فإنْ كان المانع مجتهدا فليس اجتهاده أولَى بالصّواب من اجتهاد هؤلاء العلماء الذين دعّموا الجواز بأدلّة الشّريعة، مع ضعف طريقته في الاستدلال وقيام الحجّة لهم، وإنّ كان مقلّدا كفاه تهجّمه على الغيب -والله أعلم-.

هذا وإني أرجو أن أكون قد وفقت في إبراز جانب من عقليّة هذا الإمام الجليل الذي كان لا يكتب إلاّ ذابّا على حياض الحقّ -فيما يظهر له-، وهذا إنْ دلَّ فإنّما يدلّ على هضمه لنفسه وكسره لكبريائها، قال الله تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (*) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا**﴾ [سورة الإسراء، الآيتين 18، 19]، جعلني الله وإياكم ممّن جعل سعيهم مشكورا، وذنبهم مغفورا، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المراجع المعتمدة

*** القاضي عبد الله حشلاف:**

-سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرّسول (طبعة تونس مع تعليقات ابن التبّاني عليه مخطوط).

*** محمد العربي ابن التبّاني:**

-تحذير العبقري من محاضرات الخضري أو إفادة الأخيار ببراءة الأبرار (الطبعة الثانية 1404هـ/ 1984م دار الكتب العلمية).

-تنبيه الباحث السّري إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري (الطّبعة الثّانية 1379هـ/ 1959م مطبعة الأنوار بالقاهرة).

-إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسّنة من فضائل الصّحابة (الطّبعة الأولى 1422هـ/ 2002م المكتبة المكية).

-مجموع ثلاث رسائل: «اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن بنزول المسيح بن مريم آخر الزمان»، «إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات»، «خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام» (الطبعة الأولى 1369هـ/ 1950م شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر).

آراء الشّيخ محمد العربي التبّاني في السّياسة الشرعية

د. سليمان ولدخسال

جامعة المدية

تمهيد

إنّ شـخصيّة العالم الجزائري محمد العربي التبّاني شخصيّة معاصرة، لكنّها تحمّـل نبل أولئك العلماء الربانيين الأقدمين وصدقهم وجراتهم سـلف هذه الأمّة، ولعلّ تنوّع الأماكن التي زارها وسـافر إليها الشّيخ العالم، و كذا الشّيوخ الذين تتلمذ على أيديهم أثّر إيجابا في ثقافته.

هذا و بالرغم من أنّ الشّـيخ التبّاني اسـتقر مدّرسـا في الحرم المكّي، واعتنـى أكثر بتأليف الرّجال إلاّ أنّ مـا ألّفه و كتبه وإنّ كان قليلا فإنه ينبئ عن مدى ثراء ثقافة الشّيخ وعلى قوة صدق الرّجل في الدّفاع عن كل ما يعتقد أن فيه مساسا وخدشا بالإسلام، وبالسلف الصّالح.

ويلاحظ أيضا أنّ الشّيخ التبّاني و إن عاش في بيئة كانت تفرض إلى حد ما مذهبا سنيا معينا يصعب معه الحديث عن غيره من المذاهب، وتضيق فيـه حرّية التعبـير والرأي الآخـر، إلا أنّ هذا العـالم الجزائري لم يكترث بذلك وبقي مالكيا في مذهبه، له جرأة في قول ما يراه حقا وصوابا.

وللشيخ العالم آراء ونظرات في علم السّياسة الشرعية، وهذا من خلال ما كتبه و ألّفه و بخاصّة كتابه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»، والسؤال الذي يطرح، هل كان الشّيخ تابعا لغيره من العلماء في آرائه في السّياسة الشّرعية أم أنّه كان مجدّدا ؟ وما هي مظاهر وصورها هذه الآراء؟!

وللإجابة على هذه الإشكالية، كان لا بد من معالجة العناصر التالية:

أولا: شخصيّة الإمام محمد العربي التبّاني، ومصطلح علم السّياسة الشرعية:

إنّ الاّطلاع على طبيعة آراء هذا الشّيخ العالم حول السّياسة الشّرعية منوط بمعرفة شخصيّة هذا العالم، وبالمفاهيم المتعلّقة بهذا الفنّ، وعليه كانّ لا بد من بيان هذين المحورين وفق التفصيل التالي:

1 – نبذة موجزة حول هذا العالم[1]: هذا الشّيخ هو العالم الجزائري ثمّ المكيّ واسمه الكامل محمد العربي التبّاني بن الحسين بن عبد الرحمان بن يحي بن مخلوف السطايفي الجزائري، ولد بمدينة راس الوادي الواقعة قريبا من ولاية سطيف في الشرق الجزائري، سنة 1315هـ[2]،الموافق لحوالي 1898م، حفظ القرآن الكريم، و بعض متون العلم الصغار كالرحبية والجزرية في مسقط رأسه، ثمّ تلقى مبادئ العقائد و النّحو

(1) أخذت هذه الترجمة من كتاب تحذير العبقري من محاضرات الخضري، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف مطبعة الرئاسية 1912م ج01، ص07 إلى ص15.

(2) أكثر ما جاء عن حياة هذا العالم مأخوذة ممّا سطّره الشّيخ عن نفسه، وهذا في آخر كتاب له: محادثة أهل الأدب بأخبار و أنساب الجاهلية العرب، مطبعة مجازي بالقاهرة 1370هـ/ 1951م. وكان ذلك سنة 1370هـ الموافق لـ1950م، انظر الشّيخ محمد العربي التبّاني، تحذير العبقري من محاضرات الخضري المرجع نفسه،ج1 على هامش ص7.

والفقه على جلّة من المشايخ يتقدمهم الشّيخ عبد الله بن القاضي اليعلاوي.

ولما أصبح شابًّا يافعا سافر إلى تونس وحضر دروس بعض مشايخ الزيتونة في الفقه والصّرف والتجويد، ثمّ انطلق إلى المدينة المنوّرة ليتتلمذ على يد عدد من العلماء الأفذاذ منهم الشّيخ أحمد الونيسي القسنطيني المتوفى سنة 1338هـ، والشّيخ عبد العزيز الوزير التونسي المتوفى سنة 1336هـ، والشّيخ اللّغوي محمد محمود قاضي.

وبعدها انتقل إلى الشّام ولم يمكث فيها طويلا لينتقل بعدها إلى مكة المكرّمة، أخذ فيها على الشّيخ عبد الرحمان الدّهام المتوفى سنة 1337هـ، وعلى الشّيخ مشتاق أحمد الهندي.

وفي سنة 1338هـ وُظّفِ كمدّرس في مدرسة الفلاح، فعلم وتعلَّم الشيء الكثير فختم الموّطأ والصحيحين، وتفسير الّنسفي وسيرة ابن هشام...الخ

أما تأليفه وكتبه، فلم يكن الشّيخ يميل كثيرا إلى الكتابة بسبب اعتقاده أن ما أصبح يكتب هو تكرار وشرح واختصار لما ألّفه الأوائل، ولعلّ من أبرز ما وصل إلينا كتاب «تحذير العبقري من محاضرات الخضري» واسمه أيضا «إفادة الأخيار ببراءة الأبرار»، و«براءة الأشعريين من عقائد المخالفين»، و «إتحافُ ذوي النجابة بما في القرآن الكريم والسّنة النّبوية من فضائل الصّحابة»، وهو ردّ على الطاعنين في الصحابة، و«تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل تعاليق الكوثري»...إلخ

توفّي رحمه الله تعالى في شهر صفر عام 1390هـ، الموافق لشهر أفريل سنة 1970م بمكّة المكرّمة، شارك في جنازته ثلّة من طلبة العلم، ومن العلماء الفضلاء.

2- **مصطلح علم السّياسة الشرعية**: تأتي السّياسة الشرعية[1] بمعنيين أحدهما عام و هو الذي له علاقة بأنظمة الحكم و علاقتها الدّولية، لذلك عرف بأنه «العلم الذي يعرف به أنواع الرئاسات والسياسات الاجتماعية والمدنية، وأحوالها من أحوال السلاطين والملوك والأمراء وأهل الاحتساب والقضاء و العلماء و زعماء الأموال، و وكلاء بيت المال ومن يجري مجراهم»[2]، وثانيهما خاصّ، وهذا المعنى يتّصل بالعقوبة، و بالمصلحة التي يراها الحاكم لذلك عرفت بأنها «فعل الشيء من الحاكم لمصلحة يراها، وإنّ لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي»[3]، وقد جمع بعض الدّارسين نماذج من هذه السّياسة ممّا هو منشور في الكتب الفقهية العامّة[4].

(1) أخذ هذا المصطلح من سليمان ولدخسال، جهود العلماء في فقه السّياسة من خلال السيرة النبوية، المؤتمر العالمي الأول في السيرة النبوية، أيام 07 - 08 - 09 محرم 1434هـ الموافق لـ 22 - 23 - 24 نوفمبر 2012 ،فاس المغرب ،ج1 ص368 إلى 370.

(2) محمد خان، أبجد العلوم، ط 1296هـ، الهند، ج2، ص511.

(3) محمد أمين عابدين، ردّ المحتار على الدر المختار المعروفة بحاشية ابن عابدين، دار عالم الكتب، الرياض، ط1423هـ/ 2003م، ج6، ص20.

(4) سعد بن مطر المرشدي، فقه المتغيرات في علائق الدولة الإسلامية بغيرها، دار الهدي النبوي، مصر ،دار الفضيلة السعودية ،ط1، 1430هـ/ 2009م، ج1، ص54إلى ص61.

ثانيا: مظان مادة السّياسة الشّرعية عند الشّيخ التباني:

يبدو أنّ أكثر أراء الشّيخ محمد العربي التبّاني في السّياسة الشّرعية مستَمَدَّة من خلال نقده لبعض معاصريه وبخاصة تعقيبه على كتاب الشّيخ محمد الخضري بك وعليه فإنّ مادّة بحثه لم تأت إلاّ عرضا ومن خلال سياق معيّن، ومع ذلك يمكن عند النظر في كتابه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري» اكتشاف الكثير من الآراء في مادّة السّياسة الشرعية، خصوصا في بحث الخلافة.

على أنّ ما يلاحظ أكثر في فكر الشّيخ العالم، تنوع وثراء ثقافته وعمق فكره، ودقة وبراعة ملاحظاته وتعقباته، ومن أساطين الفكر السّياسي الذين اعتمد عليهم: ابن خلدون [1] و أبو المعالي الجويني [2]، وعبد القاهر الجرجاني [3]، وابن حجر [4]، والباقلاني والأشعري [5]، وما يلفت النظر أنّ صيت هذا العالم وصل إلى بعض المحقّقين المعاصرين، فهذا الدكتور محمد موسى الشّريف يعترف بأسبقية الشّيخ في نقده للشّيخ محمد الخضري بك عندما قال: «قام الشّيخ محمد العربي التبّاني الجزائري بتصنيف كتاب سمّاه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»، حذّر فيه من أقوال للشّيخ الخضري في بعض محاضرات

(1) محمد العربي التبّاني، تحذير العبقري، المرجع السابق، ج1، ص228.

(2) المرجع نفسه ،ج1 ص268.

(3) المرجع نفسه ،ج1 ص269.

(4) المرجع نفسه ،ج1 ص273.

(5) المرجع نفسه ،ج1 ص274.

له»[1]، ولعلّ هذا ما يؤكد سعة علم هذا الشّيخ و ثقافته الغزيرة التي تعدت طابع المحلية إلى أفق العالمية.

ثالثا: صور من آراء الشّيخ في السّياسة الشرعية:

لعلّ من أبرز ما تناوله الشّيخ في الأحكام المتعلّقة بالخلافة ما يلي:

1 – تعريفه للخلافة و موقفه من العلم الشرعي الذي يحكمها: يبدو أنّ الشّيخ التبّاني من خلال قراءاته للكثير من علماء السّياسة الشّرعية حاول أن يهذّب تعريف الخلافة حتى يكون أقرب إلى الوضوح وإلى أسلوب هذا العصر، مع محاولة جمعه للعناصر التي تحكم هذا المصطلح فقال معرّفا رحمه الله تعالى «نيابة عن النّبي صلى الله عليه وسلم في أحكام الفروع، ومصالح المسلمين الدينية والدنيوية»[2]، وهذا التعريف لا يكاد يبعد عن تعاريف الكثير من أساطين الفكر الإسلامي خاصّة ابن الأزرق[3]، وابن خلدون الذي قال عنها «خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا به»[4].

و أما موقفه من العلم الشرعي الذي يحكمها، فالشّيخ يعتقد كما يعتقد جمهور أهل السّنة أنّ الخلافة من الفروع و ليس من الأصول

(1) محمد موسى الشريف، جهود المؤرخين المعاصرين في خدمة السيرة النبوية، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية، المرجع السابق، ج02، ص671.

(2) تحذير العبقري ،المرجع السابق ،ج1 ص219.

(3) محمد ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ،تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب ،ليبيا، تون،ج01، ص110.

(4) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ط01، 1425هـ/ 2004م،ج01، ص365.

بخلاف ما يظّنه الشيعة، يقول الشّيخ : «أقول نصّ المتكلّمون على أن مباحث الإمامة ليست من العقائد بل هي من المتمّمات، و بيان ذلك أنّ مباحث الإمامة من الفقه بالمعنى المتعارف، لأنّ القيام بها من الفروض الكفايـة و ذلـك من الأحـكام العمليّة دون الاعتقاديـة «[1]، و أمّا عن السّبب الذي جعل علماء العقيدة يدرجون باب الإمامة في كتب العقائد وليس في كتب الفروع فيقول: «و إنما كانت متمّمة في علم الكلام لأنه لما شـاعت في الإمامة من أهـل البدع اعتقادات فاسـدة مخلة بكثير من القواعد الإسلامية، مشتملة على قدح في الخلفاء الراشدين... أدرجت في علم الكلام لشدة الاعتناء بالمناضلة عن الحق فيها... ووجه إدخالها فيه أنّ من مباحثها ما هو اعتقادي لا عملي كاعتقاد أنّ الإمام الحق بعد رسـول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ... ومما هو فيه متمّم اعتقادي غير هذه التوبة فإنها من مباحث الفروع أيضا»[2] .

2- **حكـم وجـود الدولة في الإسـلام**: لقد انتصر الإمـام التبّاني إلى رأي جمهـور أهـل السّـنة القائل بوجـوب نصب الإمام، وهي مسـألة قديمـة و حديثة حاول البعض فيها إنكار وجود الدولة في الإسـلام، أو عـلى الأقل جعلهـا أمرا جوازيا وحسـب، ولهذا قال الشـيخ: « ولم يخالـف في وجوبها إلاّ الخوارج، قالـوا بجوازها وخالف بوجوبها على الأمّـة الإمامية والإسـماعيلية فقالوا بوجوبها عـلى الله تعالى عن قولهم علـوا كبيرا، وقال بعض المعتزلة واجبة في الفتنة دون الأمن، وبعضهم

(1) تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص 274.

(2) المرجع نفسه والصفحة.

عكسوا كلّ هذه الأقوال وما تفرّع عنها لا تشهد لها أدلة الكتاب والسنة».[1]

وبعدها أورد الشّيخ جملة من الأدلة الشّرعية من « الكتاب والسّنة والإجماع»[2]، ذلك أنّه «لو لم تكن الإمامة أمرا مهما واجبا على المسلمين ما قدّمها الصّحابة على دفنه ﷺ الذي هو أمر مهمّ عظيم فإذا لابدّ للأمة الإسلامية من إمام يقيم معالم الدين والسّنة وينتصف للمظلومين ويستوفي الحقوق ويضعها في مواضعها»[3].

لكن الغريب في رأي الشّيخ أنّه لازال مصرًّا أنّ الخلافة لا تكون إلاّ لقريش برغم صعوبة تحقّق هذا الشّرط واقعا قال رحمه الله تعالى: «والعقل يسوغ استحقاق الخلافة لكل من اجتمعت فيه شروطها لولا النّص «الأئمة من قريش» »[4].

3- **مواقفه من شروط الإمامة**: يبدو أنّ الشّيخ بقي ملتزما بالشّروط المتعلّقة بالإمام برغم أنّه عالم معاصر، وهذا التعلّق صرّح به وهذا بقوله: «فعلماء الإسلام قاطبة، حين قالوا شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة: الذكورية والورع والعلم والكفاءة ونسبة قريش»[5].

(1) المرجع نفسه،ج1 ص219.

(2) المرجع نفسه،ج1 ص217.

(3) المرجع نفسه والصفحة.

(4) تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص 217.

(5) المرجع نفسه، ج01، ص262.

ولقد توقف الشّيخ كثيرا عند شرط القرشية منتصرًا و متأوّلاً، قال: «قال عياض اشتراط كون الإمام قُرشيا مذهب العلماء كافة وقد عدّوها في مسائل الإجماع ولم ينقل عن أحد من السّلف فيها خلاف، وكذلك من بعدهم في جميع الأمصار، ولا اعتداد بقول الخوارج ومن وافقهم من المعتزلة لما فيه من مخالفة المسلمين»[1].

وقد دافع كثيرا عن حديث «الأئمة من قريش» وناقش معارضته هذا الحديث لحديث صحيح آخر «اسمعوا و أطيعوا وإنّ استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة» بأن تأوّل بأنّ «هذا الحديث محمول عند العلماء على الأمراء الذين هم دون الخليفة...و المقصود منه المبالغة في الأمر بالطاعة بضرب مَثَلٍ في الحقارة وبشاعة الصورة بما لا يتصوّر في الوجود، وقد أجمعت الأمّة على أن الإمامة لا تكون في العبيد اختيارا»[2].

وقد ردّ أيضا الشّيخ على من عارض على شرط القرشية بالآية القرآنية ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[3]، فقال «صحيح ولكنها لا تدلّ على مدعاهم لأنه تعالى قال «عند الله» أي لا عند المخلوقين في الدُّنيا فهذه العندية والله تعالى أعلم»[4].

(1) المرجع نفسه، ج01، ص220.

(2) المرجع نفسه، ج01، ص222.

(3) سورة الحجرات، الآية13.

(4) تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص226.

ويبـدو لي أنّ الشّـيخ لم يكـن موفّقا في هذه الإجابـة لأنّ الآية عامّة وتتعلّق بكل النّاس و«بين مبدأ المسـاواة بين النّاس الذي يمثل قاعدة من قواعد الحكم في الإسلام [1].

بـل ورد أيضا على ابن خلدون القائل بأنّ هذا الشّرط ظرفي مؤقت متعلـق بالعصبيـة، قال الشّـيخ «لا حجّة فيه لما ادعـاه ابن خلدون من أن الـسر أو العلّة في تخصيص قريش بالخلافة مـا كان لهم من العصبيّة و التقـدّم على سـائر بطون العرب، ولو كانت هـذه الدعوى صحيحة مـا نازعتهـم الأنصار فيهـا»[2]، ويعتقد الشّـيخ أنّ «العلة في تخصيص قريش بالخلافة هو مقام النّبوة لا العصبية والتقدّم»[3].

والـذي يظهـر أنّ الكثـير مـن المعاصرين قام بدراسـة هـذا الشّرط وانتهـى إلى «أنـه ليس في هذه الأحاديث ما يدل عـلى انحصار الإمامة في قريش، وإنّما تتسـوّى قريش في هـذا الأمر مع غيرها و الأحقية فيها للأصلح من المسلمين»[4].

4- رده لشـبهة أنّ الخلافـة كانـت مخصصة لقرابة النّبـي ﷺ: لقد ردّ الشّـيخ عـلى هذه التّهمة من خـلال اثني عشر وجها منهـا قوله «لم تذكر

(1) سـليمان ولدخسـال، جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السّـياسي الإسلامي، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلاميّة، جامعة الجزائر، 2008م، ص86.

(2) تحذير العبقري، المرجع نفسه،ج01، ص223.

(3) المرجع نفسه والصفحة.

(4) نعـمان صـادق شـايف الخلافـة الإسـلاميّة، دار السـلام، القاهـرة، ط01، 1425هـ / 2004م، ص218.

كتب الصّحاح والمسانيد بل ولا كتب التّاريخ و أبرزها و أقربها تناولا لكل طالب علم ابن جرير وابن الأثير أنّ عليّا رضي الله عنه ومن شايعه قال الخلافة مخصصة في بني هاشم لا تكون في غيرهم من قريش فنحن نتحدى كل من تخصّص في التّاريخ من المعاصرين و اغتر بكلامه هذا أن ينقل لنا فريته هذه عن مؤرّخ إسلامي مشهور[1]، ونقل أيضا الشّيخ أنّ «عليا رضي الله عنه قد بايع الصدّيق رضي الله عنه في ثاني يوم السقيفة ولم يفارقه في سفر ولا حضر وقد حضر معه قتال الأعراب المرتدّين...حقّقه ابن كثير في البداية، وقال: «وما ذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره من الأخبار المخالفة لما في الصّحاح فهي مردودة على قائلها و ناقليها»[2].

5- **رأيه في تعدد الأئمة**: يبدو أن الشّيخ متمسّك بالنص الشرعي ولهذا يقول مثلما يقول جمهور أهل السنة بمنع إقامة إمامين لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم «فاضربوه بالسّيف كائنا من كان»، لأنها - حسب الشّيخ - تؤدّي إلى المخالفة و الشّقاق وحدوث الفتن، والحكمة في منع تعدد الإمام منافاة التعدّد لمقصود الإمامة من اتحاد كلمة الإسلام، واندفاع الفتن[3].

وهذا الرأي لم يسلم من المناقشة[4] فقد قال الإمام عبد القاهر «اختلف الموجبون للإمامة في عدد الأئمة في كل وقت، فقال أصحابنا لا يجوز أن

(1) تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص230.

(2) المرجع نفسه، ج01، ص233.

(3) المرجع نفسه، ج01، ص272.

(4) انظر تفصيل هذه المسألة في: سليمان ولدخسال، المرجع السابق، ص460 إلى ص462.

يكون في الوقت الواحد إمامان واجبي الطاعة، و إنّما ينعقد إمامة واحد في الوقت، ويكون الباقون تحت رايته، وإنّ خرجوا عليه من غير سبب يوجب عزلهم فهم بغاة إلا أن يكون بين البلدين بحر مانع من وصول نصرة أهل كل واحد منها، عقد الإمامة لواحد من أهل ناحيته»[1]، وهو ما ذهب إليه الإمام الجويني عندما قال «والذي عندي أن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد متضايق الخطط والمخالف غير جائز، وقد حصل الإجماع عليه، وأمّا إذا بعد المدى وتخلل بين الإمامين شسوع النوي فللإحتمال في ذلك مجال، وهو خارج عن القواطع»[2].

﴿الخاتمة﴾

إن ما يمكن ذكره في هذه الخاتمة جملة من الملاحظات والنتائج لعل أهما:

1- أنّ آراء الشّيخ في علم السّياسة الشّرعية لم تأت مقصودة مستقلة ببحث منفرد و إنّما جاءت بمناسبة ردّه على الخضري، أو في سياق كتابه براءة الأشعرين.

2- أن الأمثلة التي سُقتها في هذا الباب جاءت على سبيل التّمثيل وليس الحصر، وإلا فيمكن لأي باحث أن يكتشف المزيد من هذه المراجع ومن غيرها وحتى من مواقفه العملية.

(1) عبد القاهر البغدادي، أصول الدّين، مطبعة استنبول تركيا، ط01، 1346هـ/ 1928م، ص274.

(2) الجويني، الإرشاد ،مكتبة الخانجي، القاهرة ،مصر 1369هـ/ 1950م،ص425.

3- أنّ قـراءة أفكار هذا الشّـيخ في هذا العلـم وفي غيره يلاحظ أنّ الرّجل كان يملك شخصيّة مستقلّة، وعقلا ناضجا ناقدا، قوّالاً للحق في جرأة قلّ نظيرها، ثمّ إنّ له حرقة وغيرة في الدفاع عن الإسلام وعن الصّحابة.

4- أنّ هـذا العـالم الجزائـري عـاش في بيئتـين مختلفتـين الجزائـر والسّـعودية ومـع ذلك حافظ عـلى مرجعّيته المالكية وتـرك بعد وفاته انطباعا حسنا، فكان قيمة إضافية لكل العالم الإسلامي.

5- أنّ الشّـيخ محمد العربي التبّاني يضاف إلى السّلسلة الذهبية التي تزخـر بها الجزائـر قديما وحديثا كبرهان أن هـذه الأرض الطيبة ولود، أسهمت بحق في بناء الحضارة الإسلامية والإنسانية.

«وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه»

قائمة المصادر والمراجع

1- أخذت هذه الترجمة من كتاب تحذير العبقري من محاضرات الخضري، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف مطبعة الرئاسية 1912م ج01، ص07 إلى ص15.

2- أكثر ما جاء عن حياة هذا العالم مأخوذة ممّا سطّره الشّيخ عن نفسه، وهذا في آخر كتاب له: محادثة أهل الأدب بأخبار و أنساب الجاهلية العرب، مطبعة مجازي بالقاهرة 1370هـ/ 1951م. وكان ذلك سنة 1370هـ الموافق لـ1950م، انظر الشّيخ محمد العربي التبّاني، تحذير العبقري من محاضرات الخضري المرجع نفسه،ج1 على هامش ص7.

3- أخذ هذا المصطلح من سليمان ولدخسال، جهود العلماء في فقه السّياسة من خلال السيرة النبوية، المؤتمر العالمي الأول في السيرة النبوية، أيام 07 -08 - 09 محرم 1434هـ الموافق لـ 22 - 23 - 24 نوفمبر 2012 ،فاس المغرب ،ج1 ص368 إلى 370.

4- محمد خان، أبجد العلوم، ط 1296هـ، الهند، ج2، ص511.

5- محمد أمين عابدين، ردّ المحتار على الدر المختار المعروفة بحاشية ابن عابدين، دار عالم الكتب، الرياض، ط1423هـ/ 2003م، ج6، ص20.

6- سعد بن مطر المرشدي، فقه المتغيرات في علائق الدولة الإسلامية بغيرها، دار الهدي النبوي، مصر ،دار الفضيلة السعودية ،ط1، 1430هـ/ 2009م، ج1، ص54إلى ص61.

7- محمد العربي التبّاني، تحذير العبقري، المرجع السابق، ج1، ص228.

8- المرجع نفسه ،ج1 ص268.

9- المرجع نفسه ،ج1 ص269.

10- المرجع نفسه ،ج1 ص273.

11- المرجع نفسه ،ج1 ص274.

12- محمد موسى الشريف، جهود المؤرخين المعاصرين في خدمة السيرة النبوية، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية، المرجع السابق، ج02، ص671.

13- تحذير العبقري، المرجع السابق ،ج1 ص219.

15- محمد ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ،تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب ،ليبيا، تون،ج01، ص110.

16- بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ط01، 1425هـ/ 2004م،ج01، ص365.

17- تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص 274.

18- المرجع نفسه والصفحة.

19- المرجع نفسه،ج1 ص219.

20- المرجع نفسه،ج1 ص217.

21- المرجع نفسه والصفحة.

22- تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص 217.

23- المرجع نفسه، ج01، ص262.

24- المرجع نفسه، ج01، ص220.

25- المرجع نفسه، ج01، ص222.

26- سورة الحجرات، الآية13.

27- تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص226.

28- سليمان ولدخسال، جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السّياسي الإسلامي، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلاميّة، جامعة الجزائر، 2008م، ص86.

29- تحذير العبقري، المرجع نفسه،ج01، ص223.

30- المرجع نفسه والصفحة.

31- نعمان صادق شايف الخلافة الإسلاميّة، دار السلام، القاهرة، ط01، 1425هـ/ 2004م، ص218.

32- تحذير العبقري، المرجع السابق، ج01، ص230.

33- المرجع نفسه، ج01، ص233.

34- المرجع نفسه، ج01، ص272.

35- انظر تفصيل هذه المسألة في: سليمان ولدخسال، المرجع السابق، ص460 إلى ص462.

36- عبد القاهر البغدادي، أصول الدّين، مطبعة استنبول تركيا، ط01، 1346هـ/ 1928م، ص274.

37- الجويني، الإرشاد، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر 1369هـ / 1950م.

دفاع الفقيه الشّيخ محمد العربي التبّاني عن مذهب الإمام مالك

أ.د. بلقاسم شتوان
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

مقدمة :

الحمد لله الذي شرح بفضله صدور المرشدين للعباد، وضيّق بعدله قلوب الجهلة ذوي الفسق والعناد. وقيّض لحمل الشريعة السمحة عدول كل خلف ورثة الأنبياء والزهّاد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة موقن بتوحيده، مستغيثا برحمته. مستجيرا بحسن تأييده.

وأشهد أن محمدا عبده المصطفى وأمينه المجتبى، ورسوله المبعوث رحمة إلى كافة النّاس أجمعين صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدّجى وأصحابه مفاتيح الهدى وسلّم تسليما كثيرا.

1 حياة الشّيخ الفقيه محمد العربي التبّاني العلميّة : هو العلّامة محمد العربي بن التبّاني بن الحسين بن عبد الرحمن بن يحيى السطيفي الجزائري المكّي المدرّس بالحرم الشّريف. ولد الشّيخ العربي التبّاني بقرية راس الوادي بولاية سطيف، من أعمال سطيف بالجزائر سنة 1315هـ (حوالي 1897 – 1898م)، وهي القرية التي ولد بها الشّيخ البشير

الإبراهيمي رحمه الله. وبالنظر إلى تاريخ ميلاد الشّيخ التبّاني نجده أصغر من الشّيخ البشير بسنوات قليلة، فلا شك أن الشّيخ يعرفه ولعله كانت بين الشّيخين مراسلات واتّصالات.... وتلقى تعليمه الأوّل في قريته حيث حفظ القرآن الكريم وعمره اثنا عشر عاماً، وحفظ معه بعض المتون الصغار، ثمّ شرع في التوسّع وبدأ في تلقي بعض المبادئ في العقائد والنّحو والفقه على يد عدّة مشايخ وعلماء أفاضل. وبعد ذلك رحل إلى تونس ومكث بها أشهراً درس أثناءها على أيدي بعض مشايخ جامع الزيتونة المشهورين . وبعد هذه الرحلة أكرمه الله تعالى برحلة أخرى إلى المدينة المنوّرة حيث لازم فيها كبار العلماء خاصّة المالكية، ومنهم العلّامة أحمد بن محمد خيرات الشنقيطي التندغي وقرأ على يديه الدردير على مختصر خليل، ولازم أيضاً بالمدينة المنوّرة العالم المشهور العلّامة حمدان بن أحمد الونيسي المتوفى عام 1338هـ وهو شيخ عبد الحميد بن باديس،فقرأ على الشّيخ حمدان تفسير الجلالين وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل. ومن مشايخه أيضاً ببلد المصطفى عليه الصّلاة والسّلام الشّيخ عبد العزيز التونسي المتوفى عام 1336هـ حيث قرأ عليه موطأ مالك مع الشّرح للزرقاني وقطعة من مختصر خليل.وممن لازمه الشّيخ العربي التبّاني اللّغوي الشّهير محمد محمود الشنقيطي. ثم بعد ذلك رحل إلى دمشق الشّام حيث مكث فيها شهوراً وكان يزور مكتبة الملك الظّاهر المعروفة بالظاهرية وأحياناً كان يتردّد على دار الحديث الأشرفية، ثمّ خرج من دمشق وقصد أم القرى الدّهام بعد أن تكبّد مخاطر الطريق ومشاق السفر حيث وصل الدّهام في شهر رجب عام 1336هـ .وبدأ بالدّراسة والحضور في

حلقـات العلـم بالمسـجد الحرام حيـث أخذ عن الشّـيخ عبـد الرحمن الدّهـام المتـوفى عام 1337هـ دروسـاً في فنون شـتى فقـرأ عليه شرح زكريـا الأنصـاري وأخذ عن الشّـيخ مشـتاق أحمد الهنـدي. ولبراعته وحذاقتـه في الفهم ختم مع القـراءة والمطالعة كثيراً من الكتب الكبيرة والصّغيرة والرّسائل وجميعها في الطّبقات والتّراجم والسّير والتّاريخ. وفي عام 1338هـ عّين مدرّسـاً بمدرسة الفلاح[1] بجدة ونظراً لتفوقه ونبوغه فإن اشـتغل بالتدريس تحـت أروقة الحرم المكّي الشريف بباب الزيـادة ثمّ بباب العمرة بين المغرب والعشـاء . فقام بتدريس الحديث والتفسـير والأصـول والبلاغة والتّاريخ الإسـلاميء. وختم الطلاب عنده كثيراً من الكتب منها الصّحيحان وموطأ مالك والجامع الصّغير للسّـيوطي وتفسـير البيضـاوي والنّسـفي وابـن كثـير وجمـع الجوامع وسـيرة ابن هشـام وعقود الجمان والإتقان في علوم القرآن وتخرج على يديـه تلاميذ كثـر، أصبحوا بعده قناديل تضيء سـاحات الحرم ومنهم العلّامـة علـوي بـن عبـاس المالكـي والعلامـة الفاضل الشّـيخ محمد نور سـيف بن هـلال ،والعالم الصالح محمد أمين كتبـي. ومن تلاميذه أيضـاً الدكتور محمد علـوي مالكي .وقد كان من عادة الشّـيخ العربي التبّـاني أن يدرّس في الحرم خمس ليال في الأسـبوع إلى جانب الدّروس التي كان يلقيها بمدرسـة الفلاح وبعد ذلك اختصر دروسـه فى ليلتي الجمعـة والسـبت في الحرم المكّـي حيـث كان يدرّس الجامـع الصّغير

(1) أوّل مدرسـة نظامية في الجزيرة العربية، أسّسها تاجر اللؤلؤ المعروف الحاج محمد علي زينل رضا بجدة في 7 ديسـمبر 1905م، وبعد ذلك بسـتّ سنوات افتتح لها فرعاً معروفاً بمكّة المكرّمة، وتُعرَف المدرسة بأنها خرَّجت جيلا من أدباء ومفكري الحجاز والعديد من رجال الدولة المرموقين.

للحافظ السيوطي والسّيرة، مع الاستمرار في التّدريس في منزله لكبار الطلبة يومياً من الضحى إلى الظهر ثمّ في المساء يدرّس في شتى الفنون. ولقد كان رحمه الله صاحب فهم تام وذكاء وقّاد، وكان متواضعاً معروفاً بين كل من يعرفه بالخلق الطّيب الحسن. وكانت تربطه محبة ومودة مع تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه ومن الذين تأثّروا به تلميذه الشّيخ حسن مشاط فقد تأثّر به تأثّراً كبيراً حتى في معاملته. وكثير ممنّ تلقوا العلم على يدي الشّيخ أصبحوا فيما بعد علماء يلقون الدّروس في الحرم الشريف، حيث ازدهرت بهم جنبات الحرم الشريف وأصبحت حلقاته العلميّة نورا يضيء أروقته، ومن أخلاقه أنّه كان يشفق على الفقراء والمساكين، وكان ذا هيبة ووقار وحسن خلق وعزم في درسه مع التّوسع في الشّرح والبيان، عامر الوقت بالذكر والمذاكرة ويدعو إلى الله بحاله وماله.

وكان للشّيخ العربي التبّاني رأي في التّأليف حيث جاء في حاشية كتابه «محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب». قال: «لا أميل إلى التّأليف عملا بنظريّة القائل ما ترك الأوّل للآخر شيئا. ثمّ قال: أستغفر الله من أن أقول هذا هضماً لحقوق العلماء الشّارحين فإنهم عندي بالمكان الأعلى من التوقير والاحترام وما من شرح وحاشية إلا وفيه فوائد، ولكن أقول هذه الكثرة لم تنتج شيئاً يقارب علم الأقدمين فضلاً عن مساواته» ويقول الشّيخ العربي التبّاني: «لقد سمعت شيخي، الشّيخ حمدان الونيسي رحمه الله تعالى يقول: «التّأليف في هذا الزّمان ليس بمفخرة». فالشّيخ صاحب رأي قويّ مع الأدب الجّم الكبير للعلماء الأجلّاء فهو لا يغلق الباب ولكنه ينزّل أعمال

المتأخّرين منزلتها مقارنة بأعمال المتقدّمين. وللشّيخ مصنّفات كثيرة نافعة ومفيدة رغم رأيه المذكور في التصنيف حيث كتب غالبا من أجل تصحيح بعض الأخطاء والردّ على المخالفين:

1 – إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن الكريم والسّنة النّبوية من فضائل الصّحابة.

2 – تحذير العبقري من محاضرات الخضري.

3 – اعتقاد أهل الإيمان بنزول المسيح بن مريم عليه وعلى نبينا السلام آخر الزمان.

4 – خلاصة الكلام فيما هو المراد بالمسجد الحرام.

5 – إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات. وللشّيخ العربي التبّاني كتب كثيرة لم تطبع مثل:

أ – براءة الأبرار ونصيحة الأخبار من خطل الأغمار

ب – ومختصر تاريخ دولة بني عثمان

ج – إدراك الغاية من تعقب ابن كثير في البداية.

وتعدّ حياته حافلة بالخير والعلم ومسيرة إسلاميّة طيّبة درّس خلالها تحت أروقة الحرم المكّي، تشعّ أنواره في أرجاء الحرم معلما لمبادئ الدين الإسلامي، توفي الشّيخ محمد العربي التبّاني في شهر صفر عام 1390هـ / أبريل 1970م بمكّة المكرّمة، وصلي عليه بالمسجد الحرام ودفن بمقابر المعلاه، واشترك في تشيعه عدد كبير من العلماء وأهل العلم ومحبيه وتلاميذه. وهكذا ودع أهل مكّة عالما من علمائها الأجلاء الأفاضل الأفذاذ وصالحاً من الصّالحين ،وفقدت مكّة بوفاته

رجلاً من الأعيان والأعلام مثلما فقدت مكّة قبله وبعده مثله من أهل القلم وأقطاب المعرفة، ولفراقه عمّ حزن كبير أرجاء الدّهام ، رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته وجزاه الله عن العلم والعلماء خير الجزاء نظير ما قدم من علم وعمل وجعل الجنة مثواه.[1]

2 **محمد العربي التبّاني الفقيه يصحح ويدافع ويردّ** : قال في رسالته: «تنبيه الباحث السرّي إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري[2]» كلام ابن خلدون الذي توكّأ عليه الكوثري في تحقير المالكية عموماً وخاصة مالكية المغرب والأندلس.[3]

يقول الكوثري ولذا ترى ابن خلدون يقول في «**مقدمته**» عن مذهب مالك ما لفظه: «فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق[4]، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها»[5] ومؤاخذة حضرته في تجاوزه عما قاله ابن خلدون في حيف المالكية والإلمام بحال [6] وزاد حضرته في طنبور ابن

(1) جمعت سيرة حياته من مواقع (انتيرنات).

(2) رسائل وتعاليق الكوثري، ص 78 – 86.

(3) رسالة تنبيه الباحث السريّ إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري، ص 78 – 86.

(4) يعلق الإمام الكوثري بقوله: « أنظر هذا ليس بقول حنفي، ولاكوفي، بل قول مؤرخ جليل مغربي محتدا، مالكي المذهب نشأة، قاضي مصر. ـ مقدمات الإمام الكوثري، دار الثريا للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ـ بيروت، ص317.

(5) الإمام الكوثري، مقدمات، دار الثريا للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ـ بيروت، ص317.

(6) ابن خلدون، المقدمة، 3 / 1054، 1055، (ت : عبد الواحد وافي).

خلـدون نغـمات، خص بها ابن خلـدون كما يرى القـارئ مذهب مالك الـذي لم يزل «غضـاً ولم يأخذه تنقيح الحضـارة وتهذيبها بمالكية المغرب والأندلـس» ولم يتجـاوز إلى مذهـب مالـك المنتـشر في مـصر والشـام والعـراق وخليج فارس من بلاد العرب الأحسـاء والبحرين وعمان إذ ذاك، ولا زال إلى الآن عليه جل سـكان القطر المصري والسـودان أجمع وأكثرية سكان الأحساء والبحرين والكويت وساحل عمان وبقايا منه في العراق البصرة وبغـداد، فحكمه وإنّ كان خاصا بجزء من هذا المذهب لكـن حضرته عم المذهب كلّه فقـال : «ولذا نرى ابن خلدون يقول عن مذهـب مالك، وهذا من أقبح التصرّف المكشـوف لكلام ابن خلدون، ولا نظنه يجهل اتسـاع مذهب مالك فيما ذكرناه ولا جهله بمدلول كلام أبي زيد وكلام ابن خلدون هذا في مقدمة تاريخه التي يُعجب بها كثير من أهـل العصر وله فيها مجازفـات كثيرة ومؤاخذات، وقـد نقدها العلماء. ويدل لذلك أيضاً عدم لحوقه في جريه في مضمار الطريقة العلميّة لأقرانه المشـاركين لـه في المشـايخ كالعلامتين الشريف أبي عبـد الله، وأبي عثمان العقبـاني، والحافـظ المقري الكبير بتلمسـان، والقباب بفاس، والشّـيخ ابـن عرفة بتونس، وقد مالت نفسـه إلى خدمة الملوك، فتولى رياسـة قلم الإنشـاء عند بني مرين وغيرهم من أمراء المغرب، وتنقل في ذلك بينهم ومدحهـم، ومع ذلك لم تصـف له الحياة، فرحـل إلى غرناطة بالأندلس فوجدها مشـحونة بجلّة العلماء مثل شـيخ الشّـيوخ أبي سـعيد بن لب، والعلامة أبي إسـحاق الشاطبي، ولم يكن له في صنعة الإنشاء بها نصيب مع وزيرها لسان الدين بن الخطيب، فرجع إلى مسقط رأسه مدينة تونس فلم يقر قراره فيها أيضاً، وبعد برهة نزح عنها إلى مصر القاهرة فاتّخذها

وطناً ونفق سوقه بها، فولّى بها قضاء المالكية وبعض وظائف التّدريس إلى أن توفي بها رحمه الله. وكلام ابن خلدون هذا باطل من عشرة أوجه:

الأول : مذهب مالك شيء واحد؛ عبارة عن كلية مسائل تلقاها عنه العراقيون والمصريون والمغاربة والأندلسيون مشاعاً بينهم، فيلزم في كلامه التناقض، وهو أن يقال مذهب مالك لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، ونقحته الحضارة وهذبته لأنّ ما رواه المغاربة والأندلسيون لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، وما رواه العراقيون وغيرهم نقحته الحضارة وهذبته، والمفروض أن المذهب مجموع كلي مشترك بين الجميع.

الثاني : يقال مقصوده ما انفرد بروايته المغاربة والأندلسيين عن العراقيين والمصريين من المسائل هو الذي لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما يظهر من كلامه، وهو فاسد أيضاً لأنه يقال عليه بعض مذهب مالك لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، ويلزم عليه حينئذ دعوى صعبة المرتقى، وهي تمييز البعض الذي انفرد به المذكورون مسألة عن البعض الذي هذّبته ونقّحته حضارة المشارقة كذلك، وهو رحمه الله لم يكن فقيهاً في مذهب مالك فضلاً عن كونه حافظاً لأقوال مذهبه كلها، فضلاً عن إمكانه التّمييز بين ما رواه هؤلاء وهؤلاء من الأقوال، فصعوده إلى قمة «**افريست**»[1] أقرب إليه من هذا، فتحقق أن هذا الكلام من مجازفات كتاب الإنشاء، وهو والشعراء يتوسعون في قذف الكلام بدون مبالاة كما لا يخفى.

الثالث : يبطله أيضاً محور مذهب مالك؛ فإنه يدور على كبار أصحابه المصريين ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم

(1) إفريست : أعلى قمة بسلسلة جبال هملايا.

وحضارة مصر بيّت العلم فيها على يد هؤلاء وتلامذتهم طبقة بعد طبقة وغيرهم، وارتحال أهل العلم من العراق والمشرق والمغرب والأندلس للأخذ عنهم مما سارت به الرّكبان، وقد ضبط في بطون المجلّدات، وأما ازدهار الحضارة المزعومة في مصر في عصر الطولونيين والاخشديين والفاطميين ومزاحمتها لبغداد فيها، وتفوّقها عليها في عهد الأيوبيين والمماليك البحرية والجراكسة وهلمّ جرا إلى اليوم فلا يحتاج إلى دليل.

أصبح الملك بعد آل علي * مشرقا بالملوك من آل شادي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم * ومصر تزهو على بغداد

الرابع : نتيجة هذا الكلام حتماً تجهيل ساداتنا علماء الصّحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا أبعد النّاس عن الحضارة المزعومة، وهم قادة الأمّة وسادتها في كل علم وخلق، وقريب من كلام ابن خلدون هذا في سوء تعبيره وقلّة أدبه مع سادة السّلف وعلمائه قول القائل في حقّ الصّحابة رضي الله عنهم : إنهم ليسوا ممنّ يفهم دقائق علم الهيئة بسهولة ! وقد أنكر حضرته في رسالته إحقاق الحق على إمام الحرمين (في مغيث الخلق) كلاماً في حقّ الصّحابة يقرب من كلام ابن خلدون هذا أشدّ الإنكار، فما باله أحلّه هنا بكلام ابن خلدون؟! قال في صفحة 9 من رسالته إحقاق الحق معلّقاً على كلام إمام الحرمين. وقال في الصفحة 15 «أصول الصّحابة لم تكن كافية لعامة الوقائع، ولذا كان المستفتى في عصر الصّحابة مخيرّاً في الأخذ بقول الصدّيق في مسألة، وبقول الفاروق في أخرى بخلاف عهد الأئمة فإنّ أصولهم كافية» أقول: «هذه الفلتة مستغنية عن الإفاضة في التعليق لأنّ معنى عدم كفاية أصول الصّحابة رضي الله عنهم أنّه ليس عندهم ما يبنون

عليه جواب المسائل، فيستلزم هذا عدم جواز أن يفتوا، لا تخيير المستفتى في الأخذ عمّن شاء منهم، لأنّ القول بعدم كفاية أصولهم تجهيل لهم وسوء أدب نحوهم، وقلّة معرفة بأحوالهم، وإلى الله نبرأ من ذلك كلّه»[1] وقد وقع فيما تبرّأ منه باستسمانه لكلام ابن خلدون مع أنّه على أقلّ تقدير، صريح في تحقير وتجهيل أمّة عظيمة من علماء المغرب والأندلس، وليس له ولا لغيره أن يقول كلاما خاصا بمالكية المغرب والأندلس، فلا يتناول الصّحابة وغيرهم. نقول: هو كذلك لفظاً ولكنه عامّ المعنى فيشملهم كما هو ظاهر للمتأمّل فيه.

الخامس : العلوم مِنَحٌ إلهية والإنسان ميّزه الله على سائر الحيوان بالعقل، فالذّكاء والبّلاَدة متساويان في فطرة حضر أو بادية، وقد قال أمير المؤمنين حيدرة رضي الله عنه كما في الصّحيح لما سُئل : هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : ما خصّنا بشيء دون النّاس إلاّ ما في هذه الصّحيفة أو فهما أوتيه رجل، وهو رضي الله عنه باب مدينة العلم من أشدّ الصّحابة تقشّفاً وزهداً في الدّنيا وخشونة؛ فهو على نظريّة ابن خلدون من أعرق النّاس في البداوة، بل هذا ابن مسعود رضي الله عنه جراب العلم الذي هو دعائم مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، أعرق علماء الصّحابة في البداوة لأنه من «هذيل» وهم بادية مكّة، أمضى شطراً من عمره في رعاية الغنم ثمّ أسلم وهو كبير، فمكث مع الرسول عليه الصّلاة والسّلام تلك المدّة الوجيزة يتغذّى بمعارف المدرسة الإلهية، فأصبح أحد الأساطين الذين رفعوا قبّة الإسلام العظيمة على المعمورة.

(1) انتهى كلام حضرته (الكوثري).

السادس : يلزم من هذا الكلام الذي توكّأ عليه الكوثري في هضم المالكية، أن أهل عصرنا هذا أعلم وأرقى بكثير من أهل العصر الذي قبلنا، وهكذا يلزم في كل جيل بالنّسبة لمن قبله إلى عصر الصّحابة، فتكون نسبة فقه الصّحابة الذي لم يأخذه تنقيح الحضارة المزعومة وتهذيبها إلى فقهنا أهل هذا العصر، عصر النّور والثقّافة كما يقولون جزءا من أربعة عشر جزءاً على أقلّ تقدير، عياذاً بالله من فلتات اللّسان، وفساد الجنان؛ وهذا عكس ما جاء في الأحاديث المستفيضة عنه عليه الصّلاة والسّلام من كثرة الجهل، وقلّة العلم، وعمران أماكن اللّهو، وخراب أماكن العبادة، وفشو المعاصي آخر الزّمان عكس قوله عليه الصّلاة والسّلام لأصحابه (**أنتم في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه، وسيأتي على النّاس زمان كثير قراؤه، قليل فقهاؤه**)(*)، عكس قوله عليه الصّلاة والسّلام (**خير القرون قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته، يشهدون قبل أن يستشهدوا، ويحلفون قبل أن يستحلفوا، ويظهر فيهم السِمن**)[1].

السابع : تنقيح الحضارة وتهذيبها لمذهب مالك في القرون الوسطى والمتأخرة نهض به المغاربة والأندلسيون، فهم الذين جمعوا أمّهات

(*) تنقص رواية الحديث.

(1) أبو داود سنن أبي داود باب فضل أصحاب النّبي صلى الله عليه وسلم، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ص 842 درجة الحديث صحيح عن عمران بن حصين قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم، ثمّ اللذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم . ثمّ يظهر قوم يشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويفشوا فيهم السمن**) رواية أبي داود، ورواه الترمذي في سننه رقم 2336 .

المذاهب الكبيرة وهم الذين اختصروها وهذّبوها وشرحوها شروحاً واسعة جداً ومتوسّطة، واحتجوّا له بالأثر والنظر، وصّنفوا فيه علاوة على الأمّهات ومختصراتها وشروحها، ثروة هائلة من الدواوين مبسوطة ومتوسّطة، ومختصرة أصولاً وفروعاً ونوازل، تشهد لهم بذلك كتب طبقاتهم، كما تشهد لهم أيضاً بعض مختصرات كتب متأخّريهم المعتمدة في تدريس مذهبهم اليوم؛ فإنها تدور على زبدة آراء فحُول محقّقي علمائهم في القرون الوسطى كابن يونس واللخمي والمازري وابن رشد وأضرابهم، واعتمدوا ما حقّق المغاربة، والشّمس في المشرق ليست غاربة، فحُكْم ابن خلدون هذا عليهم بَغي وجهل محض، يوضّحه :

الوجه الثامن : فإنّ حضارة القيروان وكونها عاصمة المغرب وعكاظ العِلَم، يفد إليه النّاس من نواحي المغرب البعيدة، ومن الأندلس والمشرق للارتواء من فائض فراته الممد من النابعين النازلين بها وغيرهم، ومن أكابر شيوخ أفريقية أصحاب مالك كعبد الله بن أبي حسان اليحصبي، والبهلول بن راشد، وعبد الرحيم بن أشرس، وعلي بن زياد التونسي العبسي وغيرهم قبل ارتحال سحنون وأسد بن الفرات إلى المشرق- مما لا يخفى على المبتدئ في طلب العلم، ثمّ نشره ورفع رايته على يد الإمام سحنون وتلامذته طبقة بعد طبقة أشهر من نار على علم، إلى أن سلّط الفاطميون بمصر أعراب الجزيرة من بني رياح وزغبة على ابن باديس مالك أفريقية في القرن الخامس، فخربّوا تلك المدينة العظيمة وذهبت محاسنها، فتحوّل تيار العلم إلى حواضر المغرب التي كانت نهضت لمساجلة القيروان إذ ذاك كتونس وبجاية وتلمسان ومراكش وفاس.

الوجه التاسع : يبطله أيضاً حضارة الأندلس التي فاقت حضارة بغداد والمشرق، ولا زال النّاس مسلمين وأجانب ينقَبون ويستخرجون كنوزها

الثمينة في جميع الفنون، ولا سيّما الهندسة العمليّة في البناء والرّسم، وهم مؤسسو كثيرٍ من الفنون التي عم نفعها الأوربيين اليوم، اعترف لهم بذلك القريب والبعيد، قال المؤرخون: كان بشبه جزيرة الأندلس من أمّهات المدن العظيمة أربعون مدينة؛ وأما المتوسّطة والقرى فشيء يكلّ عنه الإحصاء وكان حول مدينة قرطبة نحو ثلاثة آلاف قرية كلّ قرية تقام فيها الجمعة وفيها سبعمائة مسجد، وكان من عادة ملوك بني أميّة بالأندلس ترتيب جماعة من أعيان الفقهاء في مجلس شورى الأحكام الشّرعية يصدر القضاة في أحكامهم عن خلاصة تحقيق جولاته، وممن كان في ذلك المجلس يحيى بن يحيى تلميذ مالك وعبد الملك بن حبيب وعيسى بن دينار. وقد توسّعوا في جميع علوم المنقول والمعقول وساووا فيها إخوانهم المشارقة وزاحموهم، فالأدب بجميع فنونه، والشرعيّات أصولاً وفروعاً وتفسيراً وحديثاً، والرياضيّات والطبّ والتّشريح، ولم يخدم فقهاء الشّافعيّة والحنفيّة والحنابلة مسانيد أئمتهم، كما خدم المالكية موطأ إمامهم فقهًا وشواهدا ورجالاً وعربّية وغير ذلك، فقد خدمه أئمّة كثيرون؛ منهم الإمام القاضي إسماعيل بن حماد العراقي له عليه كتاب عظيم يسمّى «شواذ الموطأ» في عشر مجلّدات، ومنهم أبو محمد الأصيلي وأبو الحسن القابسي وشرحه ابن الحذاء في ثمانين جُزَءً، والحافظ أبو عمر بن عبد البر شرحاً واسعاً جداً سمّاه (التمهيد لما في الموّطأ من المعاني والأسانيد) في سبعين جُزْءً، قال ابن حزم الظاهري على صلابته: لا أعلم في فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه، ثمّ اختصره في كتاب سماه (الاستذكار بفقه علماء الأمصار)، ولا زال شُرّاح الحديث من فقهاء الطوائف بعده يغترفون من محيطه، كما شرحه الإمام الحافظ الأصولي

أبو الوليد الباجي ثلاثة شروح: كبير جداً سماه (الاستيفاء) ومتوسّط وهو (المنتقى) مطبوع في سبع مجلّدات وصغير وغير هؤلاء، بل خدموا الصّحاح السّتة أكثر منهم، فقد شرحوا الصحيحين والسنن الأربعة، كما لهم مستخرجات وجمع على كتب الحديث المشهورة ومسانيد، وهذا صحيح البخاري قالوا زعم ابن خلدون أن شرحه لا زال دّينا على الأمّة، فقام بوفاء ذلك الدّين تلميذه الحافظ بن حجر العسقلاني في رأي جمع كثير من النّاس، والحنفيّة قالوا أوفى به العيني، فقد أدّى ابن حجر أمانة العلم كاملة في فتحه، بيّن لنا استمداد شرحه من طائفة عظيمة من فحول علماء المالكية الذين شرحوا الجامع الصّحيح أو غيره من كتب الحديث العظيمة، فقد نقل فيه عن أكثر من خمسة عشر رجلاً من علماء المالكية: الأصيلي وابن الحذاء وابن بطال والمهلب بن أبي صفرة وابن عتاب وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي وأبو علي الجياني والقابسي والداودي والإمام المازري وابن العربي وابن رشد والقاضي عياض وابن بشكوال والسهيلي والقرطبي وابن التين وابن أبي جمرة وابن المنير وهذا الأخير فقط أسكندري واسمه علي والقبه زين الدّين، وشرحه على البخاري في عدّة أسفار قالوا: لم يعمل على البخاري شرح مثله، يذكر الترجمة ويورد عليها أسئلة مشكلة حتى يقال لا يمكن الانفصال عنها ثمّ يجيب عن ذلك ثمّ يتكلّم عن فقه الحديث ومذاهب العلماء ثمّ يرجح المذهب ويفرع، وكان رحمه الله ممنّ له أهليّة الترجيح والاجتهاد في مذهب مالك توفّي رحمه الله سنة خمس وتسعين وستمائة، وقد ولي قضاء الأسكندرية بعد أخيه ناصر الدّين، وناصر الدّين هو صاحب الحاشية على الكشاف المسماة «بالانتصاف» وهي مطبوعة و«البحر الكبير في نخب التفسير»

وغيرهما من تآليفه النّفيسة، وأظنّ أن ابن خلدون لم يطلّع على أيّ شيء من شروح الأفاضل الذين سمّيناهم وإلاّ لم يرسل تلك الكلمة "**شرح البخاري دَين على الأمة**» إن صحّت عنه، ونقل عن نحو ثلث هؤلاء من أهل مذهبه الشّافعية، ولم نعلم أنّ أحداً من أتباع الأئمة الثلاثة اعتنى بجمع أقوال إمامه، وهذان الحافظان الفقيهان أبو عمر الأشبيلي وأبو بكر المعيطي أتما كتاب «الاستيعاب» الذي ابتدأه بعض أصحاب القاضي إسماعيل بن حماد فكتب منه خمسة أجزاء ثمّ اخترمته المنية في مائة جزء في أقوال الإمام مالك خاصّة لأمير المؤمنين الحكم الأموي فسر به جداً وأعطاهما جائزة عظيمة ومئات المجلّدات والأجزاء التي صنّفها المالكية في الفقه خاصّة لا يأتي عليها العد، مسجّلة في كتب الطّبقات برجالها حتى كاد أن يكون لكل بلدة وقرية بأفريقية والأندلس، مؤلّف خاص بها وبرجالها مما يجد المطلع على بعضها ويستدل على أنّهم حازوا القدح المعلى في جميع الفنون، وقد نبغ في المغرب والأندلس أدباء نظماً ونثراً ولغويّون ونحّاة أربوا على إخوانهم المشارقة، وطارت أسماؤهم شهرة، تلك بعض بقايا ونفائس آثارهم مشحونة بها كتب ومكاتب أوربا وغيرها، وطبقات وتواريخ خاصّة وعامّة تعرب عن بعض محاسنهم بعض الكتب التي طبعت كالذخيرة لابن بسام والإحاطة لابن الخطيب، وتاريخ مراكش لابن عبد الملك، ومعالم الإيمان في تراجم علماء القيروان، وعنوان الدراية في تراجم علماء بجاية، والبستان في تراجم علماء تلمسان، ونفح الطّيب للحافظ العلاّمة المقري، ولقريبي عصرنا هذا : تاريخ الوزير الكاتب ابن أبي الضياف التونسي لأفريقية، وتاريخ العلاّمة بيرم أيضاً، وتحفة الزائر في تاريخ الجزائر لابن العلاّمة الأمير عبد القادر، وسلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء بمدينة فاس

للشّـيخ محمد بن جعفر الكتّاني، ولم يقصر ملوكهم عن مزاحمة إخوانهم علـماء ملوك المشرق، فهـذا المأمون بن الأفطس ملك بكليـوس[1] ألّف تاريخاً في ستين مجلداً، ولم نعلم بعالم من علماء الإسلام اعتنى بفقه علماء التّابعين وخصّ فقه كل واحد منهم بمصنّف خاص، وهذا القاضي أبو بكر محمد بن أحمد القبتوري المتوفى سنة 380، القرطبي مولى عبد الرحمن بـن الحكم الأمـوي صنف في فقه كثـير من التابعين؛ فمنها فقه الحسـن البـصري جمعه في سـبع مجلّـدات، ومنها فقـه الزهري في أجـزاء كثيرة. وأمـا تصانيفهم في الجدل والخلاف والردّ على المخالفين أصولاً وفروعاً فكثيرة جداً وهم فيها فرسان الطعان وصناديد البيان، وفي أوّل طليعتهم محمـد بن الإمام سـحنون ومحمـد بن عبـدالله بن عبد الحكـم المصري، والقـاضي الإمـام إسـماعيل بـن إسـحاق العراقـي وتلامذتـه وتلامذة تلامذته كالقـاضي أبي بكر الأبهري، وتلامذة هذا الأخير كابن الجلاب وابـن القصار والقـاضي الإمام أبي بكـر الباقلاني، وألّـف القاضي عبد الوهاب بن نصر ألّف كتابه النّصرة لمذهب إمام دار الهجرة في مائة مجلد، والشـيخان أبو محمد بن أبي زيد وأبو الحسـن القابسي، وغير هؤلاء من علـماء العـراق ومصر والمغـرب والأندلـس، وكُتُب الإمام أبي الحسـن الأشـعري البصري في الردّ عـلى الملاحدة وطوائـف المبتدعة كالرّافضة والقدريّة والمعتزلة ومناظراته للمعتزلة وظهوره عليهم أشهر من نار على علم، وتفسـيره العظيم في خمسـمائة مجلد، قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه القواصم : «لم يكن منه إلا نسخة واحدة في خزانة الخليفة ببغداد فرشـا الصّاحب بن عباد المعتزلي وزيـر بني بويه القيّم على الخزانة بألف دينـار، ليحـرق الخزانة حسـداً وغيرة لمذهبـه فاحترق ذلك التَفسـير في

(1) بكليوس: بلدة صغيرة واقعة في الجنوب الغربي من شبه جزيرة الأندلس.

ضمنها، ففقد المسلمون دائرة معارف علميّة عظيمة، واستبعد الكوثري هـذا العمل مـن ابن عباد في تعليق لـه على كتابه «تبيين كـذب المفتري» صفحـة 137 ومـا أشـبه اللّيلة بالبارحـة ! دافع عن شـيخ المعتزلة بشر المريـسي، واتهم العلماء الذين طعنوا في دينـه وعقيدته كما تقدّم اعتباطاً، واسـتبعد هذا العمل الشّنيع هنا من ابن عباد بلا مستند، وطعن في جلّ أعيان علماء الأمّة الإسلامية تشفّياً، فالأرواح جنود مجنّدة .

العـاشر : قد هذّبت ونقّحت حضارة العراق المزعومة مذهب مالك رحمه الله؛ فقد تلقّاه الإمام أحمد بن المعذل البصري عن عالم المدينة ومفتيها عبد الملك بن الماجشون أحد خواص أصحاب مالك ونشره في البصرة ونواحي العراق، وكان ممنّ تلقّاه عن أحمد بن المعذل ووسّع دائرته فنشره بالعراق كلّه الإمام القاضي إسـماعيل بن إسـحاق بن حماد، فجاد بثروة هائلـة مـن أعيان العلماء فقهـاء ومحدّثين وغيرهم، تلـك تراجم كثيرين منهم في كتب التّواريخ والّطبقات تقدّم التنويه بذكر بعضهم، ومنهم أبو بكر بن مجاهد شيخ المقرئين ببغداد والمشرق كلّه والإمام يعقوب بن شيبة صاحب المسند المعلّل وأبو بكر الشبلي أحد أعيان الصّوفية في عصره وأبو ذر الهـروي أحد أئمّة الحديث من أقـران الدارقطني ومعاصريه، وأحمد بـن فارس أحد أئمّـة الأدب واللّغة؛ فلو لم يكن لمذهب مالك رجال إلاّ رجـال العـراق ولم ينشر في إقليم غيره لكفاه ذلك، فكيف به وقد نصب في كثير من أقاليم المعمورة الإسلامية رواقه؟»[1] وبالله التوفيق.

(1) منقول من مواقع (أنتيرنات).

الشيخ محمد العربي التبّاني وكتابه براءة الأشعريين من عقائد المخالفين

د. مرزوق العمري
جامعة باتنة

مقدمة

هناك جهود جزائرية كبيرة ساهمت في خدمة الإسلام والعلوم الإسلامية، وللأسف لم يكتب لهذه الجهود أن يعرَّف بها ولا لأسماء أصحابها أن تعرف، وذلك لأسباب متعدّدة مرتَ بها الجزائر في تاريخها قديما وحديثا على حد سواء، في حين كتب للكثير من علماء الجزائر أن يعرفوا في المشرق خلاف موطنهم الأصلي وذلك بفعل ظاهرة الهجرة التي طالت هؤلاء العلماء، ففي القديم هاجر الونشريسي ومات خارج الجزائر، وهاجر عيسى الثعالبي ومات خارج الجزائر، وهاجر يحي الشاوي ومات خارج الجزائر، وفي تاريخنا المعاصر هاجر علماء أيضا وماتوا خارج الجزائر منهم الشّيخ محمد العربي التبّاني. الذي تذكر مصادر ترجته بأنه نَميَّزَ بعلمه وبعمله، وللأسف لم يلتفت لهذا العالم الجزائري الكبير فلم ينل حظه من التعريف به والدراسة، باستثناء إلتفاتة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف إلى إعادة طبع كتبه في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقّافة الإسلاميّة، فهو جدير بأن

يلتفت إليه كعالم جزائري ساهم بمؤلفاته في خدمة العلوم الإسلامية وقد اتخذت من خدمته لعلم العقيدة نموذجا من خلال دراسة كتابه «**براءة الأشعريين من عقائد المخالفين**» عسى أن أصل إلى التعريف بهذا الإسهام المتميز في خدمة علم العقيدة، وما دفع بي إلى هذا العمل أمور ثلاثة هي:

1 – إن الشّيخ محمد العربي التبّاني من علماء الأمّة في تاريخنا المعاصر له الدور الكبير في خدمة العلوم الإسلامية تأليفا وتدريسا، ولكنه بقي مجهولا؛ فلا الإعلام التفت إليه، ولا دوائر البحث وجهت الباحثين إليه، الأمر الذي أبقى عليه مجهولا. وفهذا ما دفع بي إلى التعريف بجهوده فهو من حقه علينا على كل حال.

2 – إن الشّيخ محمد العربي التبّاني برز في ظرف هو انطلاقة النهضة الدينية في الجزائر فقد كان معاصرا للشّيخ عبد الحميد بن باديس وللشّيخ البشير الإبراهيمي، ولغيرهما من كبار رجال جمعية العلماء، ولذلك إذا ذكر علماء الإسلام في الجزائر المعاصرة ينبغي أن يذكر الشّيخ محمد العربي التبّاني باعتباره أحد هؤلاء.

3 – إن هذه الدّراسة تهدف إلى التعريف بجهد وإسهام علمي لهذا العالم، وهو كتابه في العقيدة المعنون بـ: «**براءة الأشعريين من عقائد المخالفين**» التركيز على هذا الكتاب كونه يسعى فيه إلى تصحيح رؤى والردّ على بعض الكتابات التي أرادت النيل من النمط الأشعري في عرض العقيدة، وأسلوب الردّ هذا نمط من أنماط الكتابة المعروفة عند المسلمين في القديم والحديث.

لهذه الأسباب اخترت كتابه هذا ليكون موضوع هذه الدراسة، ومن خلال هذا تتضح إشكالية هذه الدّراسة والتي يمكن صياغتها في التساؤل التالي: ما هي جهود الشّيخ محمد العربي التبّاني في تدريس العقيدة؟ مع التركيز على كتابه براءة الأشعريين كنموذج لذلك.

كتـــاب
براءة الأشعريين من عقائد المخالفين

هذا الكتاب لعالم جزائري معاصر كما سبق الذكر تطرق فيه إلى المدرسة الوهابية في بعدها العقدي، والكتاب نقد لهذه المدرسة في مسائل هي في ميزان العقيدة الإسلامية أمور خطيرة. وهو كتاب يحيل على كتاب آخر من كتب التراث وهو: **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر الدمشقي** (499هـ/ 571هـ) الذي يمكن تصنيفه على أنّه من كتب الردود، وكتب الردود نمط من الكتب عند المسلمين ناقش فيها بعضهم بعضا، ورد بها على بعضهم على بعض؛ إضافة وتعليقا، وتخطئة وتصويبا ... وغير ذلك... . فالشبه متحقق بين كتاب الشّيخ التبّاني وكتاب ابن عساكر فكلاهما يسعى إلى إزالة التباس في حقّ الأشاعرة ومدرستهم الكلامية؛ فنجد ابن عساكر يفتتح كتابه بالإشادة بدور الأشعري المتكلم وخصوصيات مذهبه الكلامي من وسطية واعتدال واقتصاد بين المذاهب التي كانت تتصارع في ذلك الوقت فقال: «كان أبو الحسن الأشعري رحمة الله تعالى عليه ورضوانه أشدهم بذلك اهتماما وألدهم لمن عاند السنة وأحدهم حساما، وأمضاهم جنانا عند وقوع المحنة وأصعبهم مراما، ألزم

الحجة من خالف السنة والمحجة إلزاما، فلم يسرف في التعطيل ولم يغل في التشبيه وابتغى بين ذلك قواما، وألهمه الله نصرة السنة بحجج العقول حتى انتظم شمل أهلها به انتظاما، وقسّم الموجودات من المحدثات أعراضا وجواهر وأجساما، وأثبت لله سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات إعظاما، ونفى عنه ما لا يليق بجلاله من شبه خلقه إجلالا له وإكراما، ونزهه عن سمات الحدث تغيرا وانتقالا وإدبارا وإقبالا وأعضاء وأجراما، وائتم به من وفقه الله لاتباع الحق في التمسك بالسنة ائتماما»[1].

فكتاب الشّيخ التبّاني يشبه من حيث المنطلق كتاب ابن عساكر لكنه يخالفه من جهة المضمون، فكتاب ابن عساكر في التعريف بأعلام المدرسة الأشعرية والدفاع عنها وكتاب الشّيخ التبّاني تمحور حول الردّ على الشّيخ محمد بن عبد الوهاب في أهمّ المسائل العقدية التي كان يقول بها وقد أشار إليها صاحب الكتاب بقوله: «هذه خلاصة علميّة في عقائد محمد بن عبد الوهاب ومقلديه جمعت أكثر درّها من المنقول والمعقول من تحقيق علماء الإسلام الأعلام وشيدت صرحها بتاريخ الإسلام ودعمتها بكثير من آيات الكتاب الحكيم وسنته عليه الصّلاة والسّلام فجاءت بحمد الله حصنا منيعا لا يرام»[2].

وقد لخص الشّيخ التبّاني هذه العقائد في أربع مسائل عقدية مهمّة وخطيرة في ذات الوقت وهي: التجسيم، توحيد الألوهية وتوحيد

(1) ابن عساكر الدمشقي: تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار الجيل بيروت، ط1 (1416هـ/ 1995م)، ص39.

(2) الشّيخ محمد العربي التباني: براءة الأشعريين من عقائد المخالفين، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تلمسان عاصمة الثقّافة الإسلامية 2011، ج1، ص7.

الربوبيـة، وعـدم توقـير النّبي ﷺ، وتكفير المسـلمين. أما مناقشـته لها فكانت على النّحو التالي:

1 ـ التجسـيم: التجسـيم هو الاعتقاد أن الله سـبحانه وتعالى جسـم أو يشـترك في خاصية الجسـمية كسـائر الموجـودات، وموضوع التجسـيم في البحث العقدي عند المسلمين على ارتباط بباب الصفات والصفات الخبرية على وجه التحديد التي طرحت كيفية فهمها هل وفق ما جاءت به النصوص على ظاهرها أم بتأويلها تأويلا يليق بذات الله سبحانه وتعالى؟ ثمّ خضعت مسـألة التأويـل في حد ذاتها للتسـاؤل الشرعي من حيث جـواز القول بها وعدم الجواز؟ وظهرت في ذلك مذاهب عدّة هي : القول بالتأويل، النهي عـن التأويل، التأويل بضوابط . وعدت مسـألة فهم المحكم والمتشـابه من نصوص الوحي هي المنطلق في هذا، بل هي مدار العمليّة التأويلية.

ولذا نجد بعض مؤرخي الفرق كالشهرستاني يربط مسألة التجسيم بنشـأة علم الكلام ومحاولة فهم المتشـابه من النصوص فقال: «إعلم أن السّـلف مـن أصحـاب الحديث لمـا رأوا توغل المعتزلـة في علم الكلام ومخالفة السـنة التـي عهدوها من الأئمة الراشـدين ونصرهم جماعة من أمـراء بنـي أميّة على قولهـم بالقدر، وجماعة من خلفـاء بني العباس على قولهم بنفي الصفات وخلق القرآن، تحيروا في تقرير مذهب أهل السـنة والجماعة في متشـابهات آيات الكتاب الحكيم، وأخبـار النبي ﷺ... إلى أن قال: غير أن جماعة من الشـيعة الغالية وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه»[1].

(1) الشهرسـتاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة بيروت، بلا تاريخ، ج1، ص103 وما بعدها.

لكن التنزيه الذي هو من خصائص التوحيد جعل المسلمين يبتعدون عن القول بالتجسيم واعتبروه منافيا للتوحيد النقي الذي أمرنا الله عزّ وجل بأن نعتقده، ولهذا كثيرا ما تضمنت المدونات الكلامية هذه المسألة بالتعريف بها وبنفيها عن الله عزّ وجل. يقول الغزالي: «ليس بجسم مصوّر ولا جوهر محدود مقدّر، وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير، ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود وليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء»[1].

لكن علم الكلام حفظ لنا أنّه ظهر موقف إسلامي مال إلى التجسيم وهؤلاء هم الذين عرفوا بالحشوية عند علماء الفرق والمذاهب الإسلامية وقيل : «هم فئات تجمعهم روح واحدة تتسم بالتعصب للنصوص والفهم الحرفي لها»....أما عناصر الرؤية الحشوية فهي:

1ـ الاعتماد على النصّ وحده طريقا إلى المعرفة العقدية ورفض العقل وأدلته.

2 ـ سوء فهم الأدلة الدينية بتجريدها من بعدها الاستدلالي.

3 ـ النزوع إلى الفهم الحرفي للنصوص مما أدى إلى القول بالتجسيم[2]

ثم ما لبث أن صار التصنيف الحشوي يضم بعض الحنابلة أيضا باعتبارهم من أصحاب الحديث كما قال الشهرستاني في نصه السابق. والشّيخ التبّاني في هذا الكتاب وقف عند مسألة التجسيم كأهم مسألة

(1) أبو حامد الغزالي: كتاب الربعين في أصول الدّين، شركة الشهاب الجزائر، بلا تاريخ، ص7.

(2) حسن محمود الشّافعي: المدخل غلى دراسة علم الكلام، مكتبة وهبة، ط2(1411هـ/ 1991م)، ص75 – 76.

ميزت الموقف الحشوي من حيث أصلها ثمّ كيفية انتشارها في الإسلام والنهي عنها، ووجوده في كتابات الحنابلة حتى ابن عبد الوهاب، ثمّ تبرئة بعض أعلام الأشعرية من القول به.

فعن أصل القول بالتجسيم نفى الشّيخ التبّاني أن يكون هذا من الإسلام فقال: «يبرأ كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الصّحيحة والمسلمون جميعا، وفي مقدمتهم الصّحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، والتابعون وأتباعهم والأئمة المجتهدون، وأحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهم أجمعين من هذا الهذيان، فلا صلة بين ما يعتقده وبين الشريعة المطهرة كتابا وسنة، ولا صلة أيضا بينه وبين حملتها خير القرون إلينا»[1]. فمن حيث المبدأ ينفي الشّيخ التبّاني كون التجسيم معتقد إسلاميا، ومادام غير إسلامي فمن أين جاء إلى المسلمين وانتشر في كتاباتهم؟.

نجد الشّيخ التبّاني يرجع هذه الفكرة إلى مصدر يهوديّ فالتجسيم معتقد يهوديّ فاليهود هم الذين قالوا بالتجسيم وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على ذلك فهم الذين قالوا: ﴿**نَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾ (آل عمران/ 181) وقالوا: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾ (المائدة / 64)، وقالوا: ﴿**عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**﴾ (سورة التوبة، الآية 30) وزعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ثمّ استراح يوم السبت واستلقى على العرش فلذلك تركوا العمل فيه، فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لهم: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾ (سورة ق، الآية 38)[2].

(1) الشّيخ محمد العربي التباني: براءة الشعريين من عقائد المخالفين، ج1، ص13.

(2) المصدر نفسه، ص14.

إذا الفكرة من حيث منشأها هي فكرة يهودية وقد أشار الشّيخ زاهد الكوثري إلى الأصل اليهودي لفكرة الحشو هذه فقال: «كان عدّة من أحبار اليهود ورهبان النصارى وموابذة المجوس أظهروا الإسلام في عهد الراشدين، ثمّ أخذوا بعدهم في بث ما عندهم من الأساطير بين من تروج فيهم ممنّ لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم، فتلقفوها منهم ورده الآخرون بسلامة باطن معتقدين ما في أخباره في جانب الله من التجسيم»[1]. فالفكرة يهودية من حيث الأصل حسب ما ذهب إليه الشّيخ التبّاني وهي من الأمور المنهي عنها في الإسلام وقد مر بنا تبرئته الإسلام من عقيدة التجسيم.

أما عن حضوره في كتب الحنابلة فقد ذكر الشّيخ التبّاني عدّة نماذج اعتبرها هي التي كانت مقدمات منها: وصل القول بالتجسيم إلى ابن عبد الوهاب، من هذه الكتب:

1ـ كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل الذي أورد فيه روايات كلّها دالة على التجسيم منها: «بعث عبد الله بن عمر إلى ابن عباس رضي الله عنهم كيف رأى محمد ربه؟، فقال رآه على كرسي من ذهب يحمله أربعة : ملك في صورة رجل وملك في صورة نسر في روضة خضراء دونه فراش من ذهب»

وفي نص آخر: «...فإذا كان يوم جمعة نزل من عليين على كرسيه ثمّ حف الكرسي بمنبر من نور». وفي نص آخر : «قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام بم شبهت صوت ربك حين كلمك من هذا الخلق؟ قال شبهت صوته بصوت الرعد حين لا يترجع»[2].

(1) الشّيخ زاهد الكوثري: نقلا عن المدخل لدراسة علم الكلام لحسن محمود الشّافعي، ص77.

(2) عبد الله بن احمد بن حنبل : كتاب السنة، نقلا عن الشّيخ محمد العربي التبّاني، براءة الأشعريين، ج1، ص12.

2 ـ كتاب عثمان بن سعيد الدارمي الذي تضمن نصوصا مجسمة أيضا اعتبره الشّيخ التبّاني من كتب الحنابلة التي تضمنت عقيدة التجسيم ومن هذه النصوص: «الحي القيوم يفعل ما يشاء ويتحرك إذا شاء وينزل ويرتفع إذا شاء ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس إذا شاء؛ لأنّ أمارة ما بين الحي والميت المتحرك كل حي متحرك لا محالة، وكلّ ميت غير متحرك لا محالة».... وفي نص آخر: «لو لم يكن لله يدان بهما خلق آدم ومسه بهما مسيسا كما ادعيت لم يجز أن يقال: «**بِيَدِكَ الْخَيْرُ**». وفي نص آخر : «وأنه ليقعد على الكرسي فما يفضل منه إلا قدر أربع أصابع»[1].

هذا الكتابان نموذجان من كتب الحنابلة التي تضمنت عقيدة التجسيم في نظر الشّيخ العربي التبّاني، والملاحظ على ذكره لهذين النموذجين وغيرهما أنّه رغم انتسابهما إلى المدرسة الحنبلية إلا أنّه برأ الإمام أحمد مما في هذه الكتب؛ حيث أنّه حينما تكلم عن عقيدة الإمام أحمد بن حنبل قال: «عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه فيما ورد في كتاب الله تعالى من المتشابه وفيما ثبت في صحيح السنة كغيره من أئمّة الاجتهاد والسلف الصالح تأويل ما تعين فيه التأويل كـ: ﴿**وَجَآءَ رَبُّكَ**﴾(سورة الفجر، الآية22) و: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ (سورة الحديد، الآية4)، **والحجر الأسود يمين الله في أرضه**، وتفويض علم ما لم يتعين فيه ذلك إلى الله تعالى مع تنزيهه عن متشابه الحوادث»[2]. وقد استند الشّيخ التبّاني إلى قول بعض كبار الحنابلة في حديثه عن عقيدة الإمام أحمد ككتب الإمام ابن الجوزي إذ برأوه من عقيدة التجسيم.

---

(1) عثمان بن سعيد الدارمي نقلا عن الشّيخ محمد العربي التباني: براءة الأشعريين، ج1، 17 – 18.

(2) الشّيخ محمد العربي التباني: كتاب براءة الأشعريين، ج1 ص14.

أمـا عن القول بالتجسـيم في كتب الأشـاعرة فقد اعتبره الشّـيخ التبّاني مدسوسا في كتبهم وليس ذلك هو معتقدهم وهذا بدءا بشيخهم الإمام أبو الحسن الأشعري الذي نسب إليه خصومه ما لم يقلّ فقال عنه: «وقد تقول على أبي الحسـن الأشـعري ونسـب إليه ما هو بريء منه المعتزلة والمجسمة وغيرهم»[1]. إذا فالقول بالتجسـيم مدسـوس في كتب الشاعرة وليس من معتقداتهم ومن الكتب التي دس فيها هذا المعتقد حسب الشّيخ التباني:

1ـ كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري نفسه، وهو الكتاب الذي شاع عنه أن صاحبه أعلن فيه أنّه رجع عما كان عليه من اعتقاد ومن اشـتغال بعلم الكلام وما إلى ذلك، وهذا اعتمادا على ما جاء في هذا الكتاب حيث قال: «قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسـك بكتاب ربنا عزّ وجل، وبسنة نبينا ﷺ، وما روي عن السادة الصّحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون»[2].

2 – تفسـير الإمام الطبري خاصّة تفسـيره قوله تعالى: ﴿**عَسَـى أَنْ يَّبْعَثَـكَ رَبُّـكَ مَقَامًـا مَّحْمُودًا**﴾ (سـورة الإسراء، الآيـة 79) إذ اعتبر تفسـيره لهذه الآية الكريمة وما فيه من معني التجسـيم ليس من كلام الإمام القرطبي وإنّما هو مدسوس في هذا التفسير.

3 – تفسير الإمام القرطبي في تقسيره قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ (سورة الأنعام، الآية 18) حيث اعتبر ما فيه من تضارب دلالة على أنّه ليس من وضع الإمام القرطبي وإنّما هو مما دس فيه.

(1) المصدر نفسه، ص71.

(2) أبو الحسـن الأشـعري: الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، ط4(1420هـ/ 1999م)، ص43.

4 – تفسير الإمام الألوسي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَذِينَ ءامَنُواْ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ (سورة المائدة، الآية 35) فاعتبر الشّيخ التبّاني أن تفسيره لهذه الآية الكريمة يضرب أوله آخره.

5 – الغنية للصوفي الشّهير الشّيخ عبد القادر الجيلاني الذي اعتبره من الكتب التي دس فيها التشبيه وليس من عند صاحبه[1].

هذه بعض الكتب التي أوردها الشّيخ التبّاني من مؤلفات الأشاعرة والتي دس فيها التجسيم كمعتقد فاسد فصار أصحابه ينعتون بذلك وهم أبرياء من هذا المعتقد وقد برأهم الشّيخ البتاني من هذا المعتقد انطلاقا من أوّل مدرستهم العقدية وما ورد عن أعلامها مع الإمام الأشعري الذي كان يقول في باب الصفات الخبرية مثل صفة اليد: «فإن سئلنا أتقولون أن لله يدين؟ قيل: نقول ذلك بلا كيف، وقد دل عليه قوله عزّ وجل: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (سورة الفتح، الآية10)»[2].

ومنهم الإمام الجويني إذ أورد في لمع الأدلة دليلا عقليا استدل به على التنزيه ونفى به التجسيم فقال: «الرب سبحانه وتعالى تقدس عن الاختصاص بالجهات والاتصاف بالمحاذاة، لا تحده الأفكار ولا تحويه الأقطار ولا تكتنفه الأقدار، ويجل عن قبول الحد والمقدار . والدليل على ذلك أن كل مختص بجهة شاغل لها وكلّ متحيز قابل لملاقاة الجوار ومفارقتها، وكلّ ما يقبل الاجتماع والافتراق حادث كالجواهر»[3].

(1) الشّيخ محمد العربي التباني: براءة الأشعريين، ج1، ص73.

(2) أبو الحسن الأشعري : الإبانة عن أصول الديانة، ص106.

(3) الإمام الجويني: لمع الأدلة، نقلا عن الشّيخ محمد العربي التبّاني، براءة الأشعريين، ج1، ص109.

وهكـذا نجـد أن الشّـيخ التبّـاني قد ردّ عـلى الوهابية في مسـألة من أخطر المسائل العقدية وهي القول بالتجسيم.

2ـ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية: وهذه هي المسـألة الثانية التي انتقد فيها الشّـيخ العـربي التبّاني ابن عبد الوهاب وبرأ الأشـاعرة من هـذا المعتقد، فالأشـاعرة لم يكونوا يقسـمون التوحيد عـلى هذا النّحو وإنّـما كانوا يقولون بأنـه: توحيد الذات، وتوحيـد الصفات، وتوحيد الأفعـال؛ فحينـما يتكلمـون عـن وحدانية الله عـزّ وجـل يقولون: هو واحـد في ذاته فـلا شريك له، واحد في صفاته فلا شـبيه لـه، واحد في أفعاله فلا رب سواه.

ومن المتأخّرين الذين أشاروا إلى ذلك الشّيخ عبد الحميد بن باديس حيـث قـال: «وهو واحـد في ذاته وصفاتـه وأفعالـه»[1] وشرح هذا في موضع آخر قائلا: «فلا ثاني له ولا نظير له ولا شريك له في ذاته، ولا ثاني له ولا نظير له ولا شريك له في صفاته، ولا ثاني له ولا نظير له ولا شريك له في أفعاله»[2].

فالقسـمة المألوفـة عند المتكلمين هي هـذه، لكن ما جـاء به ابن عبد الوهـاب هو تقسـيم آخـر للتوحيـد وهو: توحيـد الألوهيـة، وتوحيد الربوبيـة، وتوحيد الأسـماء والصفـات ولم يكن ذلك مـن عنده بل كان مقلدا فيه الإمام ابن تيمية. يقول الشّيخ التباني: «توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية الذي اخترعه ابن تيمية وزعم أن جميع فرق المسلمين عبدوا غير الله لجهلهم توحيد الألوهية، ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية

(1) الشّيخ عبد الحميد بن باديس: العقائد الإسلاميّة، ص 67 – 68.

(2) الشّيخ عبد الحميد: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص97.

وهـو الإقرار بأن الله خالق كل شيء، وزعم أن هذا اعترف به المشركون فكفر به جميع المسلمين وقلده فيه محمد بن عبد الوهاب»[1].

فاعتبر كتابات ابن تيمية مليئة بهذه القسـمة للتوحيد من ذلك قوله في شرح قـول النّبـي ﷺ: «**ولا ينفـع ذا الجـد منـك الجد**» جـاء فيه أنّه تضمـن أصلين عظيمين همـا توحيد الألوهية وتوحيـد الربوبية وقال عنهما : «وتوحيد الألوهية أن يعبد الله ولا يشرك به شيئا فيطيعه ويطيع رسـله، ويفعل مـا يحبه ويرضاه، وأما توحيـد الربوبية فيدخل ما قدره وقضاه وإنّ لم يكن مما أمر به وأوجبه وأرضاه»[2].

ونقـل عنه أنّه في كتابه منهاج السـنة عاب على المتكلمين مسـلكهم في دراسـة التوحيد فقال: « دخلـوا في بعض الباطل المبدع، وأخرجوا مـن التوحيد ما هـو منه كتوحيـد الألوهية، وإثبات حقائق أسـماء الله وصفاتـه، ولم يعرفوا مـن التوحيد إلا توحيد الربوبيـة، وهذا التوحيد كان يقر به المشركون»[3].

بعدمـا أكد الشّـيخ العـربي التبّاني أن ابـن تيمية قسـم التوحيد هذه القسـمة في هذين الموضعـين وفي غيرهما نجده ينكر عليه هذه القسـمة للتوحيـد معتـبرا إياه ابتعد عـن العلم وعن الحق فيقـول: «قد لبّس ابن تيمية في تأليفه على العامّة وأشباههم من المتفقهة كثيرا بالسلف الصالح

(1) الشّيخ محمد بن عبد الوهاب: كتاب براءة الأشعريين، ج1، ص117.

(2) الإمام ابن تيمية: الفتاوى، نقلا عن الشّيخ التباني: براءة الأشعريين، ج1، ص122.

(3) الإمام ابن تيمية: منهاج السنة، نقلا عن الشّيخ محمد العربي التباني: براءة الأشعريين، ج1، ص122.

والكتاب والسّـنة لترويج هواه في سـوقهم، ولكنه في هذا الكلام صرح بهواه ولم يلصقه بهما ولا بالسلف»[1]. وما دام الأمر على هذا النّحو يفهم من ذلك أن وضع أقسـام التوحيد بهذه الكيفيـة كان من قبل الإمام ابن تيمية وأما الذي روج له في المتأخّرين هو الشّيخ محمد بن عبد الوهاب.

في هـذه المسـألة لا نجـد تبرئة للأشـاعرة كما يسـتوحى مـن عنوان الكتـاب، وكما فعـل في المسـألة الأولى ـ القول بالتجسـيم ـ وإنّما نجد ردا ظاهرا على ابن تيمية في قوله بأقسام التوحيد على هذا النحو، ومن ردوده عليه:

1ـ إن تقسـيم التوحيـد إلى توحيـد الألوهيـة وتوحيـد الربوبيـة لم يثبـت عن الإمام أحمد بن حنبل رحمـه الله، ولا عن الصّحابة والتابعين رضي الله عنهـم ولم يرد في سـنة النّبي ﷺ، فـإنّ كان الأصل هو الأخذ بالنصـوص أو الاقتـداء بالسـلف أو الأخـذ بما كان عليـه الإمام أحمد فيذهب الشّيخ التبّاني أنّه لم يثبت عن هؤلاء جميعا شيئٌ من ذلك[2].

2ـ مـن حيث الدلالـة اللغوية لكلمتـي الرب والإله يرى الشّـيخ التبّـاني أنهما متلازمان؛ فالرب هـو الإله والإله هو الرب يأتي كل منهما في موضـع الآخر واسـتدل عـلى ذلك بالنصوص؛ فقد جـاء في القرآن الكريـم: ﴿**يَـا أَيُّهَا اَلنَّـاسُ اعْبُـدُواْ رَبَّكُـمُ الـذِي خَلَقَكُـمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُـمْ**﴾ (سـورة البقرة، الآيـة21)، وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَـرَ إِلَى اَلذِي حَـآجَّ إِبْرَاهِيـمَ فِي رِبِّهِ**﴾(سـورة البقـرة، الآيـة258) وغيرها كثير في كتاب الله عزّ وجل[3].

(1) الشّيخ محمد العربي التباني: براءة الأشعريين، ج1، ص124.

(2) المصدر نفسه، ص124 وما بعدها.

(3) المصدر نفسه، ص127.

3 ـ لقد ترتب على هذا لدى الشّيخ التبّاني دليل آخر؛ وهو أن القول بأن المشركين يعرفون توحيد الربوبية وحققوه ليس ذلك مطلقا بدليل ما ورد في القرآن الكريم من إنكارهم البعث، واعتقادهم أن موتهم بفعل الزّمان وهم الذين قال عنهم القرآن الكريم : ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ (سورة الجاثية، الآية 24).

4 ـ لم يأت أمر خاص في القرآن الكريم بتوحيد الله عزّ وجل في ألوهيته، ولم يقلّ ربنا عزّ وجل أنّه من لم يعرف توحيد الألوهية لا يعتد بتوحيد ربوبيته، بل كانت كلمة التوحيد مطلقة بقول الله تعالى : ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ**﴾ (سورة محمد، الآية19)[1].

هذه بعض الأدلة التي أوردها الشّيخ التبّاني في رده على ابن تيمية وابن عبد الوهاب في وضعهم لأقسام التوحيد على أنّه توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية.

3 – **عدم توقير النّبي** ﷺ: يؤاخذ الشّيخ التبّاني الوهابية في أمر آخر هو من النّاحية العقدية أمر خطير قد يصل إلى كفر فاعله وهو عدم توقير النّبي ﷺ وتعظيمه؛ فتعظيم النّبي ﷺ من الواجبات الشّرعية ولذلك من لم يعظمه اعتقادا منه أنّه لا يستحق التعظيم فذلك كفر ظاهر. من هنا بدأ الشّيخ التبّاني في توضيح هذا الأمر حيث بين الدلالة العقدية لتعظيمه وتوقيره ﷺ فقال: «وتعظيم النّبي ﷺ من الإيمان فمن لم يعظمه ﷺ بما يليق بمقامه فهو كافر، ومن رفعه في التعظيم إلى مقام الألوهية فهو كافر»[2].

(1) المصدر نفسه، ص126.

(2) المصدر نفسه، ص205.

فهـذا الأمر لا تفريط فيه ولا إفراط والضابط فيه هو نصوص الوحي قرآنـا وسـنة يسـتعصم بهما المسـلم في أمـور الديـن كلّها ومـن ذلك حقوق النّبي ﷺ، وقد عاد الشّـيخ التبّاني إلى نصوص الوحي ليسـتدل علـى أن توقير النّبي ﷺ من الدين مثل قوله تعالـى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(سـورة القلم، الآية4) وقولـه تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الْأُمِّيَّ الَّـذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهاهُـمْ عَـنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِلُّ لَهُـمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِـثَ وَيَضَـعُ عَنْهُـمْ إِصْرَهُـمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِـي كانَتْ عَلَيْهِـمْ فَالَّذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّورَ الَّـذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(سورة الأعراف، الآية 157)، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة، الآية128).

هـذه بعض آيـات القرآن الكريـم الدالة على توقير النـبي ﷺ وعظيم مكانتـه عنـد الله عـزّ وجـل، كـما أن السـنة النّبويـة تضمنـت الكثير من الأحاديث الدالة على توقيره وتعظيمه ﷺ. وقد أورد الشّـيخ التبّاني عدّة مظاهر اعتبرها من المظاهر التي تنفي توقير النّبي ﷺ ومن ثمّ الوقوع في المخالفة، من هذه المظاهر:

– إيـذاءه ﷺ في والديه، وذلك بالحكم عليهما بأنهما على غير العقيدة الإسـلاميّة، فهـذه إحدى صـور الأذى التي ألحقـت بالنبي ﷺ وعدها الشّـيخ التبّاني انتقصت من توقيره وتعظيمه ﷺ على الرّغم من أن ذلك ليس من العقائد التي يسـأل عنها المسـلم يقول الشّـيخ التبّـاني في هذا: «والحكم على أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم فلو مات جاهلا مصيرهما

لم يسأله الله تعالى عنهما، ولو مات معتقدا نجاتهما وهما في الواقع... لا يؤاخذه الله تعالى على خطئه في هذا الاعتقاد فهو غير خاسر على كلا الأمرين، ولو مات معتقدا كفرهما وهما في الواقع مسلمان كان خاسرا»[1].

والشيخ التبّاني حينما يعرض هذا الأمر يعرضه في إطار أدب إسلامي عام نهى عنه الشّرع وهو سب الأموات ليأخذ خصوصيته في حالة النّبي ﷺ؛ فإذا كان أذى الإنسان بشكل عام منهيًّا عنه وأذى الإنسان الميت على وجه الخصوص فهذا الذى يكون منهيا عنه عموما ينهى عنه من باب أولى في حقّ النّبي ﷺ وآل بيته. وقد جاء في السنة النّبوية النهي عن سب الأموات وفي مواضع كثيرة.

ـ النهي عن الاحتفال بمولده ﷺ: من الأمور التي يؤاخذ فيها الشّيخ التبّاني الوهابية ويعدهم قد أخطأوا في حقه ﷺ الاحتفال بمولده عليه الصّلاة والسلام، وعّدهم ذلك من البدع المنكرة؛ يقف الشّيخ التبّاني عند هذا الحكم معتبرا إياه مظهرا من مظاهر عدم توقيره ﷺ مبينا أن الاحتفال بالمولد النّبوي مظهر من مظاهر توقيره ﷺ، فإذا كان الأمر بالنهي يكون نهيا عن هذا التوقير الذي أمرنا بها شرعا كما سبق الذكر فقال بأن الوهابيين يسوؤهم: «اجتماع النّاس على سماع قراءة ما تيسر من قراءة القرآن وقراءة الأخبار الواردة في مبدأ أمر النّبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وما وقع فيه من الآيات وقراءة شمائله الكريمة تعظيما لقدره صلى الله تعالى عليه وسلم، وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف، ثمّ مد طعام لهم يأكلون وينصرفون»[2].

إن الاحتفال بالمولد النّبوي في نظر الشّيخ التبّاني لا حرج فيه؛ لأنه لم يرد دليل عليه بالنهي، وقد وضح الشّيخ التبّاني حكم الاحتفال

(1) المصدر نفسه، ص206.

(2) المصدر نفسه، ص217.

بالمولـد النّبوي قائـلا: «وعمل المولـد على الكيفيـة المذكورة وإنّ حـدث بعد السّـلف الصالـح ليس فيـه مخالفة لكتاب الله ولا لسـنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا لإجماع المسلمين، فلا يقول من له مسـكة عقـل ودين بأنه مذمـوم فضلا عن كونه منكـرا عظيما، وكون السّـلف الصالح لـم يفعلوه صحيح ولكنه ليـس بدليل، وإنّما هـو عدم دليل ويسـتقيم الدليل علـى كونه ممنوعا أو منكـرا لو نهى الله تعالى عنه في كتابه العزيز، أو نهى عنه رسـول الله ﷺ في سـنته الصّحيحة، ولم ينه عنه فيهما»[1].

ويفهم من هذا الكلام مادام الأمر بالنهي لم يرد فالاحتفال بالمولد النّبوي يعتريه حكم المباح وليس هو من البدعة في شيء.

ـ زيـارة النّبي ﷺ: وهذه مـن الأمور التي قال عنها الشّـيخ التبّاني بأن الوهابية قالوا بالنهي عنها؛ فقد نهوا عن زيارة قبر النّبي ﷺ وشـد الرحـال إليـه، وتحريم قصر الصّلاة في سـفر الزيارة، ومنع التوسـل بجاهـه ﷺ[2]. وهـذا الأمـر يعتبـره الشّـيخ التبّانـي مـن المخالفات الشّـرعية واسـتدل على ذلك بنصـوص من القرآن الكريـم مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَوَ اَنَّهُمُ إِذ ظَّلَمُواْ أَنْفُسَـهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾(سورة النساء، الآية 64).

وعـاد إلى أقوال العلماء في هـذا فنقل عن القاضي عياض : «وزيارة قبره ﷺ سنة بين المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها»[3].

---

(1) المصدر نفسه والصفحة.

(2) المصدر نفسه، ص206.

(3) القاضي عياض: كتاب الشفاء بتعريف حقوق سيدنا المصطفى ﷺ، المكتبة العصرية، (1424هـ/ 2003م)، ص277.

هذه بعض المسائل المتعلّقة بمكانة النّبي ﷺ والتي آخذ فيها الشّيخ التبّاني الوهابية معتبرا إياها مؤدية إلى محظور عقدي .

4 – **تكفيرهم عموم المسلمين**: مسألة التكفير مسألة خطيرة في دين الله عزّ وجل، ولخطورتها كان المقرر عند أهل السنة أنّه لا يكفر واحد من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله . وفي نقد الشّيخ التبّاني للمدرسة الوهابية مؤاخذاته لها في تكفير المسلمين لأبسط الأمور فقال عنهم: «وتكفيرهم المسلمين ونبزهم لهم بالشرك أسهل عندهم من شرب ماء الفرات، وهم متشبثون فيه برأي إمامهم الحراني، ومحمد بن عبد الوهاب مقلد له ومصرح بذلك في رسائله منه في أصوله الثلاثة»[1].

ومن المسائل التي كفرت فيها الوهابية عموم المسلمين مايلي:

– **التوسل بالنبي** ﷺ: وقف الشّيخ التبّاني عند هذه المسألة وعند قول ابن تيمية بأن التوسل عبادة المتوسل به وكذا الاستعانة والاستغاثة عبادة غير الله تعالى، وقد اعتمد في تكفير المسلمين بهذه الألفاظ على إرادة نفع جاه المتوسل به أو المستغاث به مثلا قياسا على عبدة الأوثان بجامع الإرادة المذكورة في كل[2] .

وقد ردّ الشّيخ التبّاني على الوهابية في هذه المسألة من خلال الكشف عن أسبابها وهي:

– **الجهل بحقيقة العبادة**: «فالعبادة لغة: أقصى نهاية الخضوع والتذلل بشرط نية التقرب ولا يكون ذلك إلا لمن له غاية التعظيم، فقد تبين منه أن العبادة لغة لا تطلق إلا على العمل الدال على الخضوع للمتقرب به لمن يعظمه باعتقاد تأثيره في النفع والضر أو اعتقاد الجاه العظيم الذي

(1) الشّيخ محمد العربي التباني: براءة الأشعريين، ج2، ص5.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص154.

ينفعه في الدّنيا والآخرة، وهي التي نهى الله سبحانه عن أن تقع وكفر من لم ينته عنها وما قصر عن هذه المرتبة لا يقال فيه عبادة لغير الله»[1].

– الجهل بمعنى الوسيلة: فقام بتحديدها فالوسيلة: «لغة كل ما يتقرب به إلى الغير، وسّل إلى الله تعالى توسيلا عمل عملا تقرب به إليه، فتحقق منه أن التوسل لا يسمّى عبادة قطعا، ولا يقال فيه عبادة وإنّما هو وسيلة إليها، ووسيلة الشيء غيره بالضرورة وهو واضح، فإنّ التوسل لا تقرب فيه للمتوسل به، ولا تعظيمه غاية التعظيم، والتعظيم إذا لم يصل إلى هذا الحد لا يكون الفعل المعظم به عبادة»[2].

– فساد القياس الذي تم به التوصل إلى هذا الحكم. يرى الشّيخ التبّاني أنّه مما يدُلّ على فساد هذا القياس أن العلماء قاطبة اشترطوا في: «صحة القياس كون المقيس غير منصوصا عليه في الكتاب والسنة، والمقيس هنا ـ وهو التوسل ـ منصوص عليه كتابا وسنة، والقياس في مقابلة النصّ باطل بالإجماع والفرقة بين الحي والميت في جواز التوسل بالأول فيما يقدر عليه دون الثّاني لا وجه لها؛ لأنّ الحكم الشرعي منوط في هذه المسألة ببلوغ حد العبادة وعدمه، فإنّ بلغ الفعل إذا وقع لغير الله ذلك الحد كان كفرا وإلا فلا»[3].

ـ النداء يا رسول الله: يرى الشّيخ التبّاني أنّه من المسائل التي كفرت بها الوهابية عامّة المسلمين النّداء يا رسول الله ﷺ فقال عنهم: «كلّ من تلفّظ بهذا الكلام فهو عندهم مشرك كافر وحجّتهم على تكفيره زعمهم أن فيه نداء الأموات، ونداء الأموات عندهم شرك»[4].

ورد عليهم الشّيخ التبّاني في ذلك من وجوه منها :

(1) المصدر نفسه، ص155.

(2) المصدر نفسه، ص157.

(3) المصدر نفسه، ص163.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص6.

ـ إن النّبـي ﷺ حينـما مات ابنـه إبراهيم أثّر عنه أنّـه قال: إن القلب يحـزن وإنّ العين لتدمع وإنا عنك يا إبراهيم لمحزونون، فثبت هذا عن النّبي ﷺ.

ـ لقد أثّر عن الصّحابة أنهم كانوا ينادون يا رسول الله ﷺ من ذلك أن شعارهم يوم اليمامة (**وامحمداه**)[1] .

وبذلك يصل الشّـيخ التبّاني إلى القول بأن نداء الأموات شرك غير صحيح، فيقول مؤكّدا هذا الأمر: «فلوا اسـتظهروا بالثقلين جميعا على إثبـات نـداء الأموات شرك عن أي واحـد من علماء ا تبـاع التّابعين لم يسـتطيعوا فضلا عن إثباته عن أي واحد من علماء التّابعين فضلا عن إثباتـه عن أي واحد من الصّحابة رضـوان الله عليهم فضلا عن إثباته عن النّبي ﷺ فضلا عن إثباته من كتاب الله عزّ وجل»[2].

وهكـذا يـردّ الشّـيخ التبّاني عـلى الوهابيـة في هذه الأمـور الأربعة التـي كانت مـدار كتابه هذا، وقد تنوّعت أدلّتـه وكانت من النصوص بالدرجة الأولى كما أشار في فاتحة كتابه.

خاتمـــــة:

ممـا تقدّم ومن خلال عرض أهمّ المحـاور التي تضمّنها كتاب براءة الأشعريين للشّيخ محمد العربي التبّاني يمكن تسجيل النتائج التالية:

1 – كتـاب بـراءة الأشـعريين من عقائـد المخالفين كتـاب في علم الـكلام في تاريخنـا المعـاصر، وكتـب الـكلام يمكن تصنيفها حسـب الإشكاليات التي تتناولها؛ فقد تكون شرحا وقد تكون استدلالا، وقد تكـون ردودا، وكتاب الشّـيخ التبّاني من هـذا الصنف الأخير فهو من

(1) المصدر نفسه، ص6 – 7.

(2) المصدر نفسه، ص7.

كتب الردود، وهي كتب كثيرة في تراثنا الكلامي لقد كانت للباقلاني ردود على المعتزلة، وكانت لابن الراوندي ردود على المعتزلة أيضا، وكانت للخياط ردود على ابن الراوندي....وغير ذلك .والردود التي قام بها الشّيخ التبّاني في كتابه هذا هي ردود في باب العقيدة أيضا والمردود عليه هو المدرسة الوهابية.

2 – هذا الكتاب بحسب طبيعة موضوعه العقدي هو من كتب علم الكلام وبحسب طابع العرض والنقد الذي اتّسم به، حيث أن صاحبه يعرض المسألة ويردّ عليها بكيفية جدلية كما هو شأن المتكلّمين، وعلى الرّغم من أن مسار علم الكلام في التّاريخ المعاصر قد تغير وعرف منحى تجديديا إلا أن المسائل التي عرضها الشّيخ التبّاني تعدّ من المسائل الكلاميّة القديمة. كما أنّه بحسب أسلوبه يعدّ من كتب الردود كما سبقت الإشارة إلى ذلك في صدارة هذا المقال.

3 – هذا الكتاب في حاجة إلى تحقيق لأنّ الكثير من مسائله واقتباساته وتعليقات صاحبه تحتاج إلى دراسة من جديد، وذلك يكون مبررا لإنجاز تحقيق متميّز له.

4 – في المسائل التي تطرّق لها ورد فيها عن الوهابية مسائل مازالت مطروحة في السّاحة الإسلامية و الدعوية حتى اليوم، وحتى في بعض الكتابات العقدية التي ترفض الاهتمام بالتحديات الجديدة التي تواجهنا في وجودنا العقدي.

محمد العربي التبّاني مؤرخا، على ضوء كتابه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»

د. مقلاتي عبدالله
جامعة المسيلة

مقدمة:

محمد العربي التبّاني من علماء الجزائر المرموقين، ذاع صيته واشتهر كعالم دين، ملم بعلوم الشريعة واللّغة ومرجع في الفقه المالكي، ومع ذلك كانت له اهتمامات أخرى برز فيها، ومن أهمّها اشتغاله بعلم التّاريخ، فهو مطّلع على كتب التّاريخ الإسلامي، ومتضلع في قضايا وأحداث تاريخ صدر الإسلام، وخاصة عهد الخلفاء الراشدين، وفي هذا الشأن حرّر كتابا قيّما يرد فيه على محاضرات الشّيخ محمد الخضري في تاريخ الخلفاء الراشدين، وهو ما أعطى قيمة علميّة للفقيه محمد العربي التبّاني، وفيما يلي نحاول التعريف بشخصيته وبيان ملامح شخصيته كمؤرخ على ضوء كتابه هذا.

أولا: شخصيّة التبّاني العلميّة وارتباطها بعلم التّاريخ

ولد الشّيخ التبّاني عام 1315هـ / 1898م بقرية راس الوادي قرب سطيف، ومن أسرة علميّة ترجع أصولها إلى العالم الصوفي ابن

مشيش، وهو من عرش أولاد تبّان جنوب سطيف، نشأ في عائلة محافظة، حيث درس في كتّاب قريته راس الوادي علومه الأولى، وحفظ القرآن الكريم وعمره أثنا عشر عاماً، كما حفظ معه بعض المتون مثل الأجرومية والعشماوية والجزرية، وتوسّع في معارفه فدرس على يد مشايخ وعلماء أفاضل منهم الشّيخ عبد الله بن القاضي اليعلاوي، وقد كانت له رغبة واسعة في طلب العلم فرحل إلى تونس ومكث بها أشهراً، درّس أثناءها على أيدي بعض مشايخ جامع الزيتونة المشهورين في الفقه والنّحو والصّرف والتجويد، وبعدها انتقل إلى المدينة المنوّرة ومكة، وأخذ معارف شتى على يد كبار العلماء خاصّة منهم المالكية كالعلامة أحمد بن محمد خيرات الشنقيطي التندغي، وحمدان بن احمد الونيسي شيخ ابن باديس، والشّيخ عبد العزيز التونسي، واللّغوي الشّهير محمد محمود الشنقطي.

نبغ في علوم شتى وجلس لتدريسها في مكّة المكرمّة حيث أصبح مدرّسا متمرّسًا وفقيها مفتيا إلى ان وافاه الله عام 1390هـ/ 1970م.

له مؤلفات ومصنفات في مختلف العلوم ومنها:

1ـ مختصر تاريخ دولة بني عثمان.

2 ـ براءة الأشعريين من عقائد المخالفين.

3 ـ براءة الأبرار ونصيحة الأخيار من خطل الأغمار.

4 ـ خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام.

5 ـ التعقيب المفيد من هدي الزرعي الشّديد.

6 ـ حلبة الميدان ونزهة الفتيان في تراجم الفتاك والشجعان.

7 ـ إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات.

8 ـ إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسّنة من فضائل الصحابة.

9 ـ تنبيه الباحث السريّ إلى مافي رسائل وتعليقات الكوثري.

10 ـ النصيحة والاستدراكات على كتاب المحاضرات للخضري «تحذير العبقري».

11 ـ محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب.

12 ـ اعتقاد أهل الإيمان بنزول المسيح ابن مريم عليه وعلى نبينا السلام آخر الزمان.

13 ـ وكتاب آخر لا يزال مخطوطا و لم يطبع بعد هو «إدراك الغاية من تعقب ابن كثير في البداية»[1].

ثانيا : الشّيخ التبّاني مؤرخا:

ـ اهتمامه بالتّاريخ

يشكّل التّاريخ الاسلامي بتخصصاته المختلفة: تراجم، أنساب، التّاريخ السّياسي للدول، مادة علميّة أساسية للمشتغلين بعلم الفقه والمحدّيث، ولهذا كانت تلّقن في مراحل التّدريس المختلفة، وتحظى

(1) كثيرة هي الأدبيات التي ترجمت لحياة الرّجل وذكرت تصانيفه منها، ـ تشنيف الأسماع لمحمود سعيد ممدوح، والجواهر الحسان للشّيخ زكريا بيلا، وبلوغ الأماني لمحمد مختار الدين الفلمباني، وفهرست الشّيوخ والأسانيد السّيد علوي مالكي لابنه محمد علوي مالكي الحسني.

باهتمام علماء الدّين، وفي سيرة التبّاني نجد أنّه أخذ عن شيخه الشنقيطي سيرة ابن هشام إلى جانب متون الفقه واللّغة، كما نجد التبّاني مهتما بعلوم اللّغة لصلتها الوثيقة بالفقه، وهو ما تجلّى من خلال دراسته للتاريخ الجاهلي وتحريره كتبا حول انساب العرب في الجاهلية وسيرة الفتيان الشطار الذين تداولت سيرتهم كالشنفرة وغيره.

وقد قال عنه الشّيخ اسحاق عزوز مديره في مدرسة الفلاح معبرا عن اهتمامه بالتّاريخ قائلا: «جمع الله له طرافة الحديث وغزارة العلم وسعة المعارف والجمع بين الرّواية والفهم، أصولي، مفسّر، محدّث له قدم أعلى في التّاريخ العربي والاسلامي قد شغل أوقاته منذ نشأته بمذاكرة العلم وتدريسه والتّأليف فيه»[1].

ـ مصنفاته التّاريخية:

يبدوا من خلال استعراض مؤلفات التبّاني أن عددا لابأس منها خاصّ بالتّاريخ، ومنها: ـ مختصر تاريخ دولة بني عثمان: يبدوا من عنوانه انه كتاب مختصر في تاريخ الدّولة العثمانية، اجتهدنا في البحث عنه فلم نسعف في ذلك.

ـ محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب: وهو كتاب مدرسي أُلّف كمرجع للطلاب في السعودية، تعرّض فيه لتاريخ العرب قبل الاسلام، وقد أبدع فيه وصحّح الكثير من الأخطاء وذلك على الرّغم من صعوبة الخوض في هذا التّاريخ.

(1) محمد العربي التباني: تحذير العبقري من محاضرات الخضري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1984، ص 9.

ـ حلبة الميدان ونزهة الفتيان في تراجم والشجعان: خصّصه للحديث عن سيرة بعض شجعان العرب والصّحابة، واجتهد في تصحيح بعض المواقف والأحداث المتعلّقة بسيرتهم، وقد تطلّب منه ذلك جهدا وبحثا في أمهات المصادر.

ـ إدراك الغاية من تعقب ابن كثير في البداية: أوضح فيه الغاية المحققة من تعقيبات وتوضيحات واضافات ابن كثير في مؤلفه التّاريخي الهام البداية.

ـ تحذير العبقري من محاضرات الخضري: هذا الكتاب ذاع واشتهر، وفيه خلاصة معارفه التّاريخية، رأينا أن ندرسه بتفصيل.

ـ كتابة «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»:

لقي هذا الكتاب قبولا من قبل المهتمّين منذ صدور جزئه الأوّل عام 1955م، وجاء ليصّوب أخطاء وتحريفات أصدرها الخضري في كتابه، ومنها التكلّم في الصّحابة الأجلاّء بما لا يليق بهم من تجلة ووقار، واعتماده الأحاديث الضّعيفة في ذكر السّير والحوادث، ... و هو ما جعل العلماء يفكّرون في الردّ عليه، وكان التبّاني أوّلهم، فحاز سبق التصحيح والردّ على ما أتى به الخضري من أراجيف[1].

وقد هدف التبّاني في كتابه الدّفاع عن الأخبار الصّحيحة، وردّ الأخبار الباطلة الجريحة، معتمدًا في تصحيحها على استحضار الأخبار

(1) انظر تقريض العلماء للكتاب ومنهم الشّيخ محمد بن يحي امان : محمد العربي التباني: المصدر نفسه، ص 3 ـ 4

الصّحيحة، وكذا إعادة الإعتبار لتاريخ الصّحافة والخلفاء الراشدين الذي تعرّض للتحريف التشويه، وقد نبّه في مقدمته إلى أنه يسعد لمحاربة أهل التّحريف الذين تعمّدوا الإساءة إلى صورة الصّحابة رضوان الله عليهم، وبلغ ما تعقّبه من محاضرات الخضري ستا وعشرين محاضرة (من الثالثة إلى العاشرة، والثانية عشر وثالثتها، ومن السادسة عشرة إلى العشرين، ومن الخامسة والعشرين إلى الخامسة والثلاثين)، وقد أعمل فيها نقدا وتحليلا ومحّصها بنزاهة، فاظهر معرفة واسعة وقدرة على النّقد.

فبخصوص المحاضرة الثالثة التي تعقّبها والخاصّة بحادثة الفيل فنّد المزاعم التي جاء بها المحاضر بخصوص تفسير «الطير الأبابيل».

وفي المحاضرة الرابعة أبان عن مخالفة المحاضر للقرآن والصّحاح والتّاريخ في سكنى اسماعيل عليه السلام « قبل جرّهم في أشرف بقاع، وفي المحاضرة الخامسة والسادسة كشف عن جهل المحاضر في قصّة جرهم واسماعيل ودعواه أنه هو الذي بنى الكعبة وجعلها مطافا يحجّها أولاده. وفي المحاضرة السابعة أخذ عليه وثوقه في مؤرخي الافرنج وعدم وثوقه في مؤرخي الإسلام في قصة بَحيرا. وفي نقده للمحاضرات الثانية عشرة والثالثة عشر والرابعة عشرة نبه إلى أخطاء كثيرة تتعلق بغزوات النّبي ﷺ ومنها عدد الصّحابة المتواجدين معه. وفي المحاضرة التاسعة عشرة أخذ على المحاضر تساهلا في الإقتناع برواية ضعيفة تشير إلى تباطؤ علي في مبايعة ابي بكر....إلخ[1].

(1) انظر بتفصيل، محمد العربي التباني: المصدر نفسه.

ـ منهجه التّاريخي

استهل التبّاني كتابه بمقدّمة ذكر فيها القواعد العلميّة السليمة لتوثيق الأخبار، وقد اقتصر في نقده للمحاضرات على الجزء الخاص بالصحابة كما تعرّض لبعض الموضوعات الأخرى التّاريخية التي وقعت في الجاهلية وصدر الاسلام، ومنها قصة الفيل، وبناء البيت، والخلافة الاسلامية، وقصّة الاسراء والمعراج،.. وهذا الكتاب يشبه في منهجه وهدفه كتاب «إتحاف ذوي النجابة»، خاصّة ما تعلّق بالاحتكام إلى القواعد العامّة في تحقيق الأخبار، ومنها قواعد المحدّثين التي استفاد منها التبّاني وطبقها في تحقيق الحوادث التّاريخية، حيث لا تصحّ الأخبار عنده بصحّة النّقل بل يتطلّب الأمر النّظر في المعقول منها، وبذلك ربط الرّواية بالدّراية وفي ذلك أعلى درجات التثبّت[1].

وقد قال عنه مؤلّف كتاب أباطيل تصصَّح في تاريخ الاسلام : «وفي الخلاصة: أقول لكم – وبلا فخر – خذوا مني هذه الحقائق التي هي خلاصة دراسة استمرت أربع سنوات في كتب التّاريخ وهي:

إن الكتب المفتقدة للتحقيق العلمي المتشدّقة بمنهج أهل الحديث بالإضافة إلى ما سبق هي كتب محبّ الدّين الخطيب وتحقيقاته وتعليقاته ومن أشهرها تعليقه على (العواصم من القواصم) لابن العربي المالكي، تلك التعليقات التي قلدها الجهلة من المؤرخين وأصبحوا يعارضون بها الأحاديث الصّحيحة والروايات الثابتة.!!...، وكذلك (محاضرات الخضري) التي أصبحت مرجعا لدارسي التّاريخ في

(1) انظر تقريض الشّيخ اسحاق عزوز، محمد العربي التباني: المصدر نفسه، ص 10

جامعاتنا، ففي هذه المحاضرات من الأخطاء الموبقة والنصب الظاهر ما يندى له الجبين، وقد أحسن المحدّث محمد العربي التبّاني – رحمه الله – في نقض هذه المحاضرات بكتاب أسماه « تحذير العبقري من محاضرات الخضري «، وكذلك تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن وكتاب العواصم من القواصم»، ان هذه الاشادة تندرج في اطار تقييم الجهد المبذول من قبل الشّيخ التبّاني في تصحيح الأخطاء التّاريخية وتقويمها.

الخاتمة:

ومن خلال ما سبق ذكره نخلص للّتأكيد بأنّ الشّيخ محمد العربي التبّاني الفقيه والمحدّث نبغ في علوم كثيرة، ومنها خصوصا علم التّاريخ، وقد برز اهتمامه جليّا بالسّيرة النّبوية وحياة الصّحابة والرّجال...، وكذا بالانساب واخبار العرب وصدر الإسلام والتّاريخ الاسلامي بشكل عام، وقد كان كتابة «تحذير العبقري» لَبِنَةً في الدّراسات المحقّقة لتاريخ صدر الاسلامي، برع من خلاله التبّاني، معتمدًا منهج المحدّثين في التّحقيق نقلا ومُتُنا، واستطاع ان ينبّه على أخطاء بعض العلماء والمؤرخين.

خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام للعلامة محمد العربي بن التبّاني

أ. بن سعيد موسى
جامعة المسيلة

مقدمة في فضل بيت الله الحرام

الحمد لله الذي جعل التفاضل بين خلقه أمراً سائدا، فكما فضّل بعض عباده على بعض، فضّل بعض الأمكنة على بعض، فجعل مكة أشرف البقاع وأفضلها، وخير البلاد وأكرمها، إليها تهفو القلوب، وفيها ترتاح النفوس، وعندها يحطّ الخائفون رحالهم، ونحوها يتجه العابدون فيشكون إلى الله حالهم، ويسألونه نجاتهم .

مكة هي البيت العتيق، وهي البلد الحرام، والبلد الأمين، وهي مجمع الفضائل ومحط المكارم، ففيها ترفع الدرجات وتغفر السيئات، وفيها يتسابق المتسابقون في الخيرات فهي موطن رحمة ودار عبادة،وفضائل مكة جمة ومزاياها كثيرة سنستعرض شيئا منها فمن فضائلها:

1 – أنها موطن العبادة والإنابة، فيها أوّل بيت وضع للناس لعبادة الله في الأرض قال تعالى : ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾ [سورة آل عمران، الآية 96] قال الحسن البصري : هو أوّل مسجد عُبِد الله فيه في الأرض.

2 – أنها دار الأمن والأمان، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[سورة البقرة، الآية 126] .

3 – أنها حرم الله تعالى، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [سورة النمل، الآية 91] فمكة حرمها الله على خلقه أن يسفكوا فيها دماً حراماً، أو يظلموا فيها أحداً، أو يصاد صيدها .

4 – أحبّ البلاد إلى الله وإلى رسوله : فعن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته يقول : (والله إنّك لخير أرض الله وأَحَبُّ أرض الله إلى الله ولولا أني أُخرجْتُ منك ما خرجت) رواه النسائي .

5 – فضيلة الصّلاة في مسجدها : وفضيلة الصّلاة في المسجد الحرام لا تعدلها فضيلة فالصلاة فيها بمائة ألّف صلاة فيما سواه من المساجد، كما ثبت ذلك عنه ﷺ .

6 – أكرمها الله تعالى بزمزم: وهي كرامة إسماعيل عليه السلام وأمه قال رسول الله ﷺ : (زمزم طعام طعم وشفاء سقم) رواه البزار والطبراني في الصّغير وصححه الألباني .

7 – مكة قبلة المسلمين، فإليها يتوجه عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، قال تعالى : ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [سورة البقرة، الآية 144].

8 – ومـن فضائلها أنّ الله اختارهـا لمولد نبيّه الخاتم ومبعثه ﷺ، ففيها بـدأ نزول القرآن الكريم، الكتاب الخاتم، ومنها بدأت دعوة الخير والحق، وانتشرت في الآفاق .

هذه بعض فضائل بيت الله الحرام، نسـأل المولى عزّ وجل أن يبلغنا إياه حاجين ومعتمرين مرات عديدة إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وقبل دراسة الرسالة، نتناول نبذة عن مؤلفها محمد بن العربي بن التبّاني.

العلامـة محمـد العـربي بـن التبّاني بن الحسـين بـن عبـد الرحمن بن يحيـى، المدرّس بالحـرم المكّي، ولد بقريـة من قرى راس الـواد بولاية بـرج بوعريريـج الجزائـر سـنة 1315هــ –1898م تلقّـى تعليمـه الأوّلي في قريتـه حيـث حفظ القـرآن الكريم وعمره اثنتـا عشرة عامًا، وحفـظ معـه بعـض المتـون الصغـار مثـل الآجروميـة والعشـماوية والجزريـة، وبعـد ذلـك رحـل إلى تونـس ودرس عـلى أيدي مشـايخ جامـع الزيتونـة، ثـمّ قصـد المدينـة المنـوّرة ولازم علماءهـا، وبعدهـا دمشـق، ثـمّ خرج قاصـدًا مكة المكرمـة، وبدأ بالدّراسـة والحضور في حلقـات العِلـم بالمسـجد الحـرام. وفي العـام 1338هــ عُيِّن مدرّسًـا بمدرسـة الفـلاح بأم القُـرى، وبعدها اشـتغل بالتّدريـس تحت أروقة الحَـرَم ببـاب الزيادة ثـمّ بحصوة بـاب العمرة، بين المغرب والعشـاء. وتخـرَّج عليه تلاميذ كثيرون، منهـم: العلاّمة علوي بن عباس المالكي والعلامة الشّـيخ محمد نور سـيف بن هلال والعالم الصالح محمد أمين كتبـي... وغيرهم، ترك مصنّفات عديدة منها: «براءة الأشـعريين من عقائـد المخالفين»، و«مختصر تاريخ دولة بني عثـمان»، و«إدراك الغاية من تعقيب ابن كثير في البداية» و«مجموع رسائل ثلاث» وغيرها، توفي

الشّيخ رحمه الله تعالى سنة 1390هـ - 1970م بمكّة المكرّمة، وصُلّيَ عليه بالمسجد الحرام ودُفن بمقابر المعلاه.

وسوف نتناول في هذه الورقة دراسة في الرسالة الثالثة من «مجموع ثلاث رسائل» تحت عنوان:

خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام.

أما الرسالة الأولى فقد سماها: «إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات».

والثانية سماها: «اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن بنزول المسيح بن مريم عليه السلام آخر الزمان» .

وطبعت (أي مجموع ثلاث رسائل) في كتاب من 79 صفحة الطبعة الأولى بمطبعة مصطفى الثّاني الحلبي وأولاده بمصر سنة 1369هـ - 1950م.

وهذه الرسالة (خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام) من أفضل ما كتب في الموضوع فقد جمع المؤلّف رحمه الله تعالى ما كُتِبَ وأضافَ إليه ما كَتَبَ، فكانت الحصيلة هذه الرسالة الفريدة التي جمعت آراء العلماء.

افتتح المؤلّف بحمد الله تعالى والصّلاة والسلام على رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله مولى عباده جلائل النعم، ورافع لواء الإسلام على المعمورة من الحرم، والصّلاة والسّلام على سيّد العرب والعجم، وعلى آله وأصحابه الذين شيّدوا صرح الدّين بالبرهان والسّنان فوق هامات الأمم»[1].

(1) محمد العربي بن التبّاني: مجموع ثلاث رسائل، ص72 .

ثم بين اسم الرسالة وثواب الطاعة في المسجد الحرام فقال:

«أما بعد: فهذه عجالة من الكلام فيما هو المراد من المسجد الحرام، الذي يتضاعف فيه ثواب الطاعات الواردة في أحاديث خير الأنام»[1].

وقد جمع المؤلّف ما تفرق من آراء العلماء الذين كتبوا في المراد من المسجد الحرام في بعض كتبهم، وكان يتحرى الأمانة العلميّة حيث كان يذكر اسم المؤلّف الذي يأخذ عنه واسم كتابه ورقم الصفحة والجزء، وكان ينقل النصوص من غير حذف أو تحريف، وهي أمانة لها قيمتها في النقل، ثمّ يعلق بعد ذلك ويردّ على الآراء المرجوحة التي لا تستند إلى دليل مدعما آراءه بأدلة وحجج قويّة حيث يقول:

«قال العلاّمة ابن ظهيرة القرشي المكي[2] في كتابه الجامع اللّطيف ص192و193 مانصّه: «اعلم أن الله تبارك وتعالى قد ذكر المسجد الحرام في كتابه العزيز في نحو خمسة عشر موضعا، فإذا تقرر هذا فقد اختلف في المراد بالمسجد الحرام الذي تتعلق به المضاعفة في قوله ﷺ في حديث ابن الزبير السابق: (وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي).

---

(1) المرجع نفسه ص72 .

(2) ابن ظهيرة القرشي المكي: هو محمد بن حسين بن علي المعروف بن ظهيرة القرشي المكّي الشّافعي، ولد سنة 795هـ بمكة، ونشأ بها، وحفظ القرآن وبعض المتون، وسمع من جماعة من العلماء بمكة، ودرّس وأفتى، وتفقّه، وبرع، وتفنّن حتى صار شيخ البلاد المكية، وانتهت إليه رئاسة الفقهاء والإفتاء ببلده، كتب : تكملة شرح الحاوي في الفقه، وذيل على «طبقات الفقهاء» للسبكي، مات في 861هـ بمكة، ودفن بالمعلاة . تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي،ط1، 1423 – 2002، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج3 ص187.

– فقيل: جميع بقاع الحرم.

– وقيل: المراد الكعبة وما في الحجر من البيت، ويؤيّده ما أخرجه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: (صلاة في مسجدي أفضل من ألّف صلاة فيما سواه إلاّ الكعبة)[1].

– وقيل: المراد بالكعبة وما حولها من المسجد وجزم به النووي، وقال إنه الظاهر.

– وقيل: المكان الذي يحرم على الجنب المكث فيه. اهـ[2] .

ثم يسوق الرأي الراجح عند العلماء، فيقول: «ثم قال ابن ظهيرة بعد قليل: ورجّح الطبري رحمه الله أن المضاعفة مختصة بمسجد الجماعة، وقال إنه يتأيّد بقوله ﷺ : (مسجدي هذا) لأنّ الإشارة فيه إلى مسجد الجماعة، فينبغي أن يكون المستثنى كذلك، فإنّ قيل قد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما : «أن حسنات الحرم كلّها الحسنة بمائة ألّف «فعلى هذا يكون المراد بالمسجد الحرام في حديث الاستثناء: الحرم كله.

قلنا نقول بموجب حديث ابن عباس إنّ حسنة الحرم مطلقا بمائة ألف، لكن الصّلاة في مسجد الجماعة تزيد على ذلك، ولهذا قال: بمائة صلاة في مسجدي، ولم يقلّ حسنة . اهـ .

---

(1) وورد في صحيح البخاري ومسلم بلفظ: «صلاة في مسجدي هذا، خير من ألّف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام» البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي: الجامع الصحيح، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبدالباقي، ط1، 1429 – 2008، دار ابن حزم، القاهرة، كتاب فضل الصّلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصّلاة في مسجد مكة والمدينة: حديث رقم1190، ص144، أبي الحسن مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبدالباقي، ط1، 1430 – 2010، دار ابن حزم، القاهرة، كتاب الحج، باب فضل الصّلاة بمسجدي مكة والمدينة حديث رقم1394، ص382 .

(2) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 73 .

ثـم قال ابن ظهيرة أيضـا في رأس صفحة 195 منه ما نصّه: «ونقل الشّـيخ ولي الديـن العراقي في شرح تقريب الأسـانيد أن التّضعيف في المسـجد الحـرام لا يختص بالمسـجد الـذي كان في زمـن النّبي ﷺ، بل يشـمل جميع مازيد فيه، لأنّ المسجد الحرام يعم الكل، بل المشهور عند أصحابنـا أن التضعيف يعم جميع مكة بل جميع الحرم الذي يحرم صيده كما صححه النووي . اهـ [1].

ثم نقل عن الشّـيخ الحضراوي آراء العلماء في المراد بالمسجد الحرام فقال:

«ونقل الشّـيخ الحضراوي[2] في كتابه [العقد الثمين في فضائل البلد الأمـين]، نحوا مما ذكره ابـن ظهيرة، ونص كلامـه: «واختلف العلماء رحمهم الله في المراد بالمسـجد الحرام الـذي تضاعف فيه الصلوات على أربعة أقوال:

الأول: أنّه الحرم كله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الحرم كلّه هو المسـجد الحرام، أخرجه سـعيد بن منصور، وأبو ذر، يعني الهروي، ويتأيد بقوله تعالى: ﴿**وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [سـورة الحج، الآية 25]، وقوله تعالى: ﴿**وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [سورة الفتح، الآية 25]،

(1) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 74 .

(2) الحـضراوي: أحمـد بن محمـد بن أحمد المكّي الهاشـمي، مؤرخ، ولد سـنة 1252هـ - 1836م بالإسـكندرية، وانتقل به والده إلى مكة وعمره سـبع سـنوات، فنشـأ بها وتأدّب وتفقّـه، ألّـف كتبا عديـدة منها: «العقـد الثمين في فضائـل البلد الأمين»، و«تـاج تواريخ البـشر، من ابتداء الدّنيا إلى آخر القرن الثالث عشر و«تاريخ الأعيان» وغيرها، توفي بمكّة رحمه الله تعالى سـنة 1327هـ - 1909م . خير الدين الزركلي: الأعلام، ط15، 2002، دار العلم للملايين، لبنان،ج1 ص249 .

وكان المشركون صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن الحرم عام الحديبية، فنزل خارجا عنه، وقوله تعالى: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾[1] [سورة الإسراء، الآية 1]، وكان ذلك في بيت أم هانئ على بعض الأقوال.

والثاني: أنّه مسجد الجماعة وهو المكان الذي يحرم على الجنب المكث فيه، واختاره بعضهم وقال التفضيل مختص بالفرائض، وأن النّوافل في البيوت أفضل من المسجد لحديث عبد الله بن سعد : (لأن أصلّي في بيتي أَحَبُّ إلي من أن أصلّي في المسجد) وحديث زيد بن ثابت: (خير الصّلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة).

والثالث: أنّه مكّة المشرفة، ونقل الزمخشري في كشافه في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [سورة الحج، الآية 25]، عن أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام مكة، قال: واستدلوا على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها[2].

والرابع: أنّه الكعبة[3] .

وبعد ذكر آراء العلماء في المراد بالمسجد الحرام يسوق رأي من يرجح أحد هاته الآراء فيقول:

---

(1) وساق هذا القول القرطبي، محمد بن محمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط1427،1 – 2006، مؤسسة الرسالة، لبنان، ج14 ص350 .

(2) كما نقل الزمخشري رأي الإمام الشّافعي، فقال: «وعند الشّافعي: لا يمتنع ذلك (أي لا يمتنع جواز بيع دور مكة وإجارتها)، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض،ط1، 1418 – 1998، مكتبة العبيكان، الرياض، ج4 ص184.

(3) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 75.

قال القاضي عزّ الدّين بن جماعة: وهو أبعدها (أي الرّأي الرابع الذي يحدّد معنى المراد بالمسجد الحرام بأنّه الكعبة)، والأوجه الأوّل (أي: الحرم كلّه) . اهـ [1].

ثم نقل عن الشّيخ السمهودي[2] آراء العلماء في مضاعفة الأجر في الصّلاة بمكّة والمدينة هل تختص بالفرض أم تعمّ الفرض والنفل معا؟ فقال:

«وقال السّيد السمهودي في وفاء الوفا في فضائل مسجد المدينة صفحة 299 من الجزء الأوّل مانصه:

«وهذه المضاعفة المذكورة في هذه المساجد لا تختصّ بالفريضة، بل تعمّ الفرض والنفل، كما قال النووي في شرح مسلم إنه المذهب، قال الزّركشي: وهو لازم تعليل الأصحاب استثناء النفل بمكّة في الأوقات المكروهة بمزيد الفضيلة، وقال الطحاوي من الحنفية: وهو مختص بالفرض، وفعل النوافل بالبيت أفضل، وإليه ذهب ابن أبي زيد من المالكية وهو المرجح عندهم، وفرق بعضهم بين أن يكون المسجد خاليا أم لا، فإنّ قيل كيف تقولون إنّ المضاعفة تعمّ الفرض والنفل، وقد تطابقت الأصحاب ونص الحديث الصّحيح على أن فعل النافلة في بيت الإنسان أفضل .

(1) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 75.

(2) السمهودي: أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشّافعي، مؤرخ المدينة المنوّرة ومفتيها، ولد في سمهود (بصعيد مصر) سنة 844هـ ونشأ في القاهرة. واستوطن المدينة سنة 873 هـ، وتوفي بها سنة 911هـ، من كتبه وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، وخلاصه الوفا، اختصر به الأول، وجواهر العقدين في فضل العلم والنسب، وغيرها . الزركلي: الأعلام، ج4، ص307.

قلنا لا يلزم من المضاعفة في المسجد أن يكون أفضل من البيت كما قاله الزّركشي وغيره، وغاية الأمر أن يكون في المفضول مزية ليست في الفاضل، ولا يلزم من ذلك جعله أفضل، فإنّ للأفضل مزايا إنّ كان للمفضول مزيّة، ولهذا بحث التاج السّبكي مع أبيه في صلاة الظهر بمنى يوم النحر إذا جعلنا منى خارجة عن محلّ المضاعفة هل يكون أفضل من صلاتها في المسجد لأنه ﷺ فعلها بمنى يومئذ، أو في المسجد للمضاعفة؟ فقال والده: بل في منى وإنّ لم يحصل بها المضاعفة، فإنّ في الاقتداء بأفعال النّبي ﷺ مايربو على المضاعفة، على أن الحافظ ابن حجر ذكر ما يقتضي إثبات المضاعفة للتنقّل في البيوت بالمدينة ومكة عملا بعموم قوله ﷺ : (أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)، فقال: وقد تقدّم النقل عن الطحاوي وغيره أن ذلك يعني التضعيف مختص بالفرائض لحديث: (أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)، ويمكن أن يقال لا مانع من إبقاء الحديث على عمومه، فكون النافلة في بيت بالمدينة أو مكة تضاعف على صلاتها في البيت بغيرهما وكذا في المسجدين، وإنّ كانت في البيوت أفضل مطلقا. اهـ [1].

وبعد ذكر آراء العلماء وترجيحاتهم علّق المؤلّف على هاته الأقوال مبيّنا رأيه والحجج التي استند عليها، معضدا رأيه ببعض العلماء الذين لم يذكرهم كلا من ابن ظهيرة والحضراوي في كتابيهما فقال:

«قال جامعها الحقير(أي المؤلف): قول حبر الأمّة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي صدر به الأقوال الأربعة ابن ظهيرة والحضراوي وزاد هذا أنّه الأوجه هو الأقرب إلى الحجة من الآيات القرآنية الواردة

(1) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق، ص 76.

في المسجد الحرام والأحاديث الواردة في فضل المسجد الحرام، لأنه لم يكن في زمنه عليه الصّلاة والسلام مسجد مبني محيط بالكعبة، وإنّما كانت الكعبة فقط وحول مطافها بيوت قريش ؛ والفاروق رضي الله عنه أوّل من بنى جدارا محيطا بالمطاف ووسعه ذو النورين وبنى أروقته وهو أوّل من بناها، ثمّ وسّعه الوليد بن عبد الملك وزخرفه وسقفه بالساج المنقوش، وهذا أوّل من نقل له أساطين المرمر وفرشه به، ثمّ وسعه جدا وبناه بناء متقنا على المساحة الموجودة الآن ما عدا الزيادتين المهدي العباسي، ولعدم وجود مسجد اصطلاحي محيط بالبيت في زمنه عليه الصّلاة والسلام اختلف العلماء –والله أعلم– في المراد بالمسجد الحرام الذي تضاعفت فيه الأعمال، ولم ينفرد ابن عباس رضي الله عنهما بالقول بأنه الحرم كله، بل قال به التابعي الجليل عامر الشعبي والكوفيون»[1].

واستشهد على ماذهب إليه بقول الإمام القرطبي، فقال:

«قال القرطبي في تفسير سورة آل عمران: هو قول الشعبي وهو حجّة الكوفيين، وفي تفسير سورة البقرة قال: احتج به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار. اهـ[2].

ثم ردّ على الآراء المرجوحة المذكورة في كتاب الحضراوي، فقال:

قلت: وقول الزمخشري الذي نقله الحضراوي عن أصحاب أبي حنيفة إنّ المراد بالمسجد الحرام مكة، وأنهم استدلّوا على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها فيه نظر من وجهين :

(1) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 77 – 78.

(2) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 78 .

الأول: مذهب الإمام أبي حنيفة في المسجد الحرام مثل مذهب ابن عباس (الحرم كله)، فلا خصوصية لمكة أي البلدة إلا أن يريد الزمخشري بقول مكة الحرم عموما، فيصح حينئذ .

الثاني: امتناع بيع دور مكة وإجارتها (أي التي كانت في عصره عليه الصّلاة والسلام) غير مختص بأبي حنيفة رحمه الله، بل هو مذهب جمهور العلماء المجتهدين الذين قالوا إنّ مكة فتحها عليه الصّلاة والسلام عنوة، وعليه فتكون وقفا لجميع المسلمين، وإنّما المشهور الذي تفرّع عن (المقصود بالمسجد) الحرام عند أبي حنيفة الحرم كلّه مسألة الجاني في الحل (إذا دخل) إلى الحرم فعنده رحمه الله لا يقام عليه الحد حتى يخرجمنه، وقال غيره من الأئمة يقام عليه، واتفقوا على أن الجاني.....[1].

واستشهد العلاّمة التبّاني على ماذهب إليه بأقوال علماء الأحناف أنفسهم موثّقا أقواله وردوده بما في الكتب المعتمدة في الفقه الحنفي فقال:

«قال العلاّمة النسفي الحنفي في تفسير قوله تعالى :﴿**وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**﴾ [سورة البقرة، الآية 191] ما نصه: فعندنا المسجد الحرام يقع على الحرم كلّه . اهـ.

وقال العلاّمة أبو مسعود الحنفي في تفسير قوله تعالى : ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾ [سورة آل عمران، الآية 97] مانصه:

ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو وزنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلاّ أنّه لا يؤوى

(1) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 78 – 79 .

ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج . اهـ . والله أعلم [1].

وقد حرص المؤلّف على تدوين اسمه وتاريخ التّأليف في آخر الرسائل فقال:

«كتبه الحقير الفاني (محمد العربي بن التبّاني) الجزائري المغربي خادم العِلّم بالحرم المكّي ومدرسة الفلاح، تجاوز الله عن سّيئاته يوم الجمعة الموافق 26 ربيع الأول عام1367هجرية، حامدا مصلّيا مسلّما على خير البريّة، وآله ذوي النفوس الزكية»[2].

(1) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 79.

(2) محمد العربي التبّاني: المرجع السابق ص 79.

الفهرس

- **كلمة وزير شؤون الدينية والأوقاف** 5
د. بوعبد الله غلام الله
- **التّأليف والكتابة عند العلاّمة محمد العربي بن التبّاني «المنهج والمقومات»** 7
د. محفوظ بن صغير
- **المنهج التعليمي والتربوي عند الشّيخ محمد العربي بن التبّاني الجزائري** 29
د. خير الدين شترة
- **دراسة تحليلية في تراث الشّيخ محمد العربي التبّاني** 87
د. مريم عطية
- **العربي بن التبّاني الناقد الموسوعي البصير** 103
د. محفوظ بن ساعد بوكراع
- **آراء الشّيخ محمد العربي التبّاني في السّياسة الشرعية** 123
أ. د. سليمان ولدخسال
- **دفاع الفقيه الشّيخ محمد بن العربي التبّاني عن مذهب الإمام مالك** 137
د. بلقاسم شتوان

- **الشيخ محمد العربي التبّاني وكتابة «براءة الأشعريين من عقائد المخالفين»** 155
د. مرزوق العمري
- **محمد العربي التبّاني مؤرخا على ضوء كتابه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»** 177
د. مقلاتي عبدالله
- **خلاصة الكلام في المراد بالمسجد الحرام للعلامة محمد بن العربي بن التباني** 185
د. بن سعيد موسى

تصميم وإنجاز دار **ذاكرة الأمة – 2014**